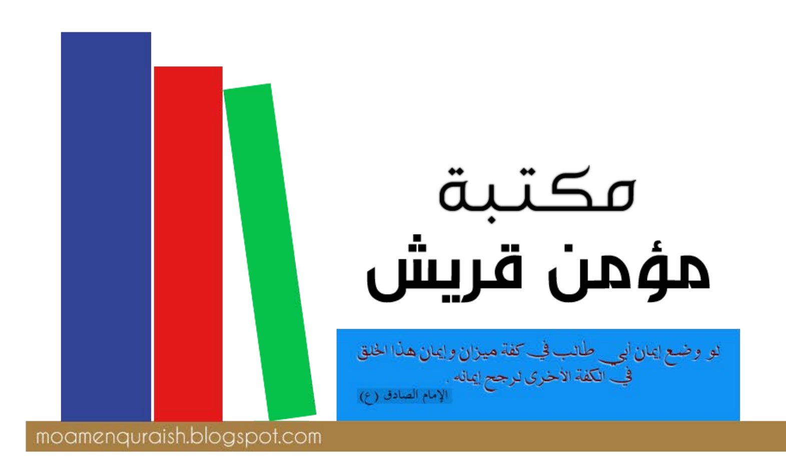
الشهيد مرتضى المطهري

كلمات في الطريق



ترجمة: كمال السيد



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

كلمات في الطريق

مجموعة مقالات ومحاضرات الأستاذ

الشهيد مرتضى مطهري

ترجمة

كمال السيد

كلمات في الطريق

الشهيد مرتضى مطهري



- ترجمة: كمال السيد
- الناشر: باقيات
- الكمّية: ٢٠٠٠نسخة
- المطبعة: سرور
- الطبعة: الأولى
- تاريخ الطبع: ٢٠٠٦م ـ ١٤٢٧هـ.ق
- القطع وعدد الصفحات: وزيري ـ ٢١٦صفحة

شابك: ٥-٢٠-٦١٦٨-٩٦٤

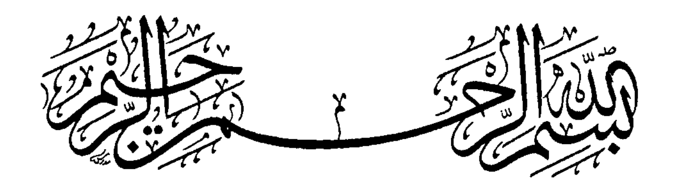
عنوان الناشر: ايران ـ قم ـ شارع معلم ـ رقم ٤٤ ـ تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع: ايران ـ قم ـ مجمع الإمام المهدي (عج) ـ الطابق الأرضي

رقم ١١٧، ١١٦ ـ تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤







الإهداء

الى روح والدي..
ربِّ ارْحمهُما كمَا ربّياني صَغيراً..

في البدء

"لقد كان المطهّري طاهراً في روحه، قويّاً في إيمانه قديراً في بيانه.. وليعلم أولئك الأشـرار أنّ رحيله لا يعني رحيل شخصيته الإسلامية والعلمية والفلسفية".

هكذا عبّر الإمام الخميني الراحل عشيّة مصرع هذا المفكّر الأسلامي الذي قـضى حياته في الجهاد والدفاع عن الرسالة الإسلامية.

تمتاز أفكار الشهيد بالبساطة والعمق، وكان الإصلاح همّه الدائم؛ وفي هذا الكتاب نلمس بوضوح نَفَسَه الإصلاحي في ثلاثة محاور؛ الأول: المجتمع وهو الأساس في عملية التغيير؛ المؤسسة الدينية الأداة الفاعلة في هذه العملية غير غافل عـن توجيـه الانتقـاد الجريء للسلطة (العهد البائد) ومحاولة توجيهها نحو تحقيق الأهداف الإسلامية العليا.

وسيلمس القارئ بوضوح أيضاً اهتمام الشهيد الاستثنائي بـ(نهج البلاغـة) الـذي يعتبر بحق أعظم تراث إسلامي بعد القرآن على الإطلاق.

وهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القاريء هو مجموعة من مقالات الشهيد في الصحافة اضافة الى بعض محاضراته وهي تنتمي جميعاً إلى العقـد الـذي سـبق انتـصار الثورة الإسلامية شباط سنة ١٩٧٩.

كمال السيّد

مقدمة

الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ مجموعة مقالات وأحاديث للأُستاذ الشهيد مرتضى مطهري في فترة زمنية تبلغ اثنتي عشر عاماً ويوضّح إغلبها نظم وقوانين وثقافة الإسلام؛ ويمكن تشبيه هذا الكتاب بكتاب (عشرون مقالة) من جهة، وبكتاب (قصص الأبرار) من جهة اخرى، وكلاهما من آثار الشهيد رضوان الله عليه.

لم تكن هذه المقالات في حوزة (مجلس الإشراف) ولكنها كانت في أرشيف إحدى المؤسسات الثقافية. وننتهز هذه الفرصة لنعرب عن تقديرنا للأُستاذ حميد خزائي الذي كان له دور في المحافظة عليها.

عنوان الكتاب، وكذلك ترتيب المقالات وتنقيحها تم بإشراف أحد الأساتذة المختصين حيث جهد على أن تكون المقالات مرتبة ترتيباً تبرز فيه وحدة الموضوع.

يعكس الكتاب ثقافة الإسلام الأصيلة والمفاهيم السامية للدين الإسلامي الحنيف. نأمل من العليّ القدير أن يحقّق هذا الأثر النفيس، شأنه شأن بقية آثار الشهيد، أهدافه في إرشاد الأُمّة الإسلامية، والإنسانية جمعاء.

معرفة الله أساس إنساني

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «اول الدين معرفته».

لو شبّهنا الدين ببناء يتألف من جدران وباب وسقف ونوافذ وقواعد ينهض عليها البناء فإنّ قواعد جميع الأفكار والعقائد والأخلاق الدينية هي معرفة الله؛ ولو شبّهنا الدين بكتاب علمي يضم أبواباً وفصولاً وقضايا متنوعة وأفكاراً يقوم عليها أصل الكتاب فإنّ معرفة الله سبحانه هي الأساس الأوّل في ذلك.

إذا أردنا مثلاً أن نخزن مقداراً من مواد البناء فليس مهمّاً ترتيب خزنها، أو أردنا أن نؤلّف كتاباً متنوعاً يضم مقالات مختلفة فليس مهمّاً ترتيب مقالاته أو تسلسها، ذلك أنّه كتاب متنوع في مواضيعه. وحتى مطالعة مثل هكذا كتاب لا يلزمنا أن نبدأ بالموضوع الأوّل أو بالصفحة الأولى إذ يمكننا أن نبدأ من منتصف الكتاب أو من آخره، أمّا إذا أردنا أن نقيم بناءاً معيّناً فإنّ الأمر هنا يختلف تماماً فالتسلسل والدقّة والحساب أمر مطلوب، وكذلك لو أردنا أن نؤلّف كتاباً علمياً أو أردنا مطالعته فإنّ أوّل شيء نفعله هو مواكبة الكتاب من بدايته وحسب ترتيب مواضيعه.

فالتديّن المنطقي والسليم يُلزم المرء أن يشرع من البداية من الأسس ألا وهي التوحيد ومعرفة الله، فإذا لم يثبت هذان الأصلان في أعماق الروح وطيّات القلب فإن سائر الأجزاء ستبقى دونما أساس متين.

فعندما صدع الرسول الأعظم بدعوته وبشّر برسالته هل قال صلّوا أو صوموا؟ وهل قال صِلوا أرحامكم، ولا يظلم بعضكم بعضاً، وهل دعا إلى الالتزام ببعض الآداب المستحبّة في المشي أو الجلوس أو تناول الطعام؟ إنّه لم يقل أو يذكر من ذلك شيئاً، بل هتف عليه الصلاة والسلام: قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا. لقد بدأ الرسول الأعظم دعوته إلى الدين الحنيف بهذه العبارة فاحتل بها قلوب العالمين ومن ثم بنى أمّته العظيمة انطلاقاً من ذلك الأساس المتين.

إن معرفة الله لا تقتصر على الدين فحسب، بل إنّها جوهر الوجود الإنساني، ذلك أنّ بناء الإنسان لا يتمّ إلا على أسس التوحيد.

إننا نطلق على كثير من الامور والشؤون وننعتها بالإنسانية، فنقول إن الإنسانية تقتضي الرحمة والمروءة والإحسان وإن الإنسانية تنشد السلام وتنفر من الحرب وتجعلنا متعاطفين مع المرضى والجرحى والمنكوبين وتدفعنا إلى مساعدة المحتاجين وتطلب منّا التضحية بالنفس واحترام حقوق الآخرين وإلى غير ذلك من المواقف والسلوك، وكل ذلك صحيح لا يعترض عليه أحد بل إن على كل إنسان أن يحقّق إنسانيته من خلال ذلك، ولكنّا لو تسائلنا عن الأُسس المنطقية التي تستند إليها تلك الوصايا والأخلاق التي تدفعنا إلى التضحية بمصالحنا من أجلها فإنّنا سنكون حينها عاجزين عن إقناع أنفسنا والآخرين بالفلسفة الكامنة وراء تلك الأخلاق والمواقف إذا لم نأخذ بنظر الاعتبار معرفة الله.

لا يمكننا أبداً اكتساب القيم الأخلاقية الرفيعة أو الانتهال من الفيض الروحي بعيداً عن نبعه الإلهي، فحتى أكثر المؤسسات مادّية في العالم تجد نفسها مضطرة إلى أن تبني نظمها الإجتماعية على أُسس أخلاقية.

لا يمكن إقصاء الإنسانية بعيداً عن معرفة الله؛ فإمّا الإيمان أو السقوط في حضيض الحيوانية وعبادة الذات والمصلحة الشخصية وما تضجّ به من انقياد إلى الشهوة والوقوع

في أسرها؛ فأمّا عبادة الله أو عبادة البطن والجاه والمناصب والمال. إذ ليس هناك من طريق ثالث.

ومن يدّعي الشرف والخلق والتقوى والعفّة وهو بعيد عن الله الذي هو نبع كل تلك الصفات فإن ذلك مجرّد أوهام لا غير.

يعبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله عزّوجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]

الإيمان شجرة تمدّ جذورها في أعماق الروح فتتفرع منها أغصان الاعتقاد بالنبوة والولاية والأديان، وكذلك الإعتقاد بأنّ هذا العالم قائم على العدالة والحق وأنّه لا يضيع أجر المحسنين وسيلقى المسيئون جزاء أعمالهم.

أمّا ثمار هذه الشجرة الطيّبة فهي الشرف والكرامة والعفّة والتقوى والإحسان والتسامح والفداء والقناعة والطمأنينة والسلام.

وفي مقابل ذلك يضرب القرآن مثلاً آخر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[2]

وهذه حقيقة تتجلى أحياناً في أفراد نراهم يتحمّسون دفاعاً عن عرقٍ أو قومية أو يقعون تحت تأثير بعض العقائد فتشتعل في نفوسهم المشاعر الكاذبة التي قد تدفعهم إلى التضحية بأرواحهم من أجلها، ولو سنحت الفرصة لأحدهم أو راجع نفسه قليلاً لعجز عن إيجاد أساس منطقي لموقفه وسلوكه، فقليل من التأمّل والإرشاد سوف يقشع تلك السحب عن سماء روحه.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

أجل إنّ الإيمان هو وحده الذي يمتلك أساسه الإنساني المتين، وإن قواعد البناء الإنساني إنّما تنهض على التقوى والإستقامة والطهر وعلى الشجاعة والشهامة والفداء، وهي الخصال التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان.

الإيمان بالله وحده البديل لعبادة الذات والمصلحة الشخصية، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[١]

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥، ٢٥٦.

معرفة الله أساسُ الدّين

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: أوّل الدين معرفته.

لكل شيء بداية وأساس فإذا نهض واشتد وأثمر فإنّما يعود الفضل إلى نقطة البداية وإلى ذلك الأساس.

فالدين ذلك النظام الشامل بعقيدته وفكره وأخلاقه إنّما يبدأ من نقطة واحدة ويرتكز على ركن واحد، فإذا انطلق من تلك النقطة ونهض على ذلك الأساس فإنه ينهض قويّاً متيناً ومفيداً، وتلك هي معرفة الذات الإلهية المقدّسة والإيمان بالأحدية المطلقة.

فالإيمان بالنبوة أو الإعتقاد بالمعاد مثلاً، على أنّهما أصلان ضروريان في الدين وأنّهما بمثابة غصنين متفرّعين من ذلك الجذع، لأن التوحيد أصل ثابت ولأنّ «للعالم مالك وهو الله» وهو الذي يدبّر الوجود ويسوقه نحو الكمال، كما أنّ البشرية أفراداً كانوا أم مجتمعات بحاجة إلى من يهديها ويدلّها عن طريق «الوحي والإلهام» وبواسطة بعض النفوس البشرية الطاهرة التي هي بمثابة علامات هداية وإرشاد حيث تتجلّى بالأنبياء والرسل.

بما أنّ أصل التوحيد ثابت وأن الموجودات تتحرك نحو الكمال المنشود، ولأن الوجود الإنساني يحمل في أعماقه إشارات النشأة الأُخرى وهي عالم الآخرة، فإنّه يمثل الجذع الذي تتفرع عنه الأغصان والأوراق والثمار.

قد يوجد بعض الناس ممن يغالون في إيمانهم بالأنبياء، ينظرون إليهم على أنّهم آلهة صغار يعبدونهم من دون الله؛ إن مثل هذه العقائد السخيفة إنما تنشأ عن خلل في الأساس الأول من البناء وهو التوحيد وعن قصور في معرفة الله سبحانه، وإلاّ فكيف يمكن للإنسان الذي له أدنى معرفة بالله مالك الملك أن ينصرف إلى عبادة إنسان لا يملك من نفسه ضرّاً ولا نفعاً على حدّ تعبير القرآن الكريم أو يشرك بعبادة الله أحداً ليس بيده موت ولا حياة ولا نشورا.

وكذلك فإنّ سائر أغصان وأوراق وثمار الدين إذا ما نبتت في أصل التوحيد استقامت وآتت أُكلها، أمّا إذا لم تتصل بذلك الجذع فإنها لن تؤتي ثمارها المرجوّة.

على سبيل المثال فإن واحدة من هذه التفرعات وفي مرحلة التطبيق التي يوجبها الدين هي مسألة احترام حقوق الآخرين. إن أصل التوحيد يقضي بأن الله عادل وحكيم وبصير، وأن الله العادل الحكيم لا يصدر عنه أمر ظالم وأن الله سبحانه، وكما نصّ القرآن على ذلك ، يأمر بالعدل والإحسان والإيثار والتضحية ورعاية الآخرين، كما أن الله العادل الحكيم ينهى عن الأعمال القبيحة والسيئة والأعمال التي يستقبحها العقل وأن الله العادل الحكيم ينهى عن الظلم والعدوان، ولكننا نجد في الماضي والحاضر وفي المستقبل أيضاً أُناساً يرتكبون الفحشاء والمنكر والعدوان ومع ذلك يدّعون بأنّ الله قد أمر بذلك وأن ما يقومون به يوافق الموازين الشرعية والأحكام الدينية؛ يقول

سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١)

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى أنّ هؤلاء الناس لو كانوا يدركون التوحيد أو عرفوا الله بأسمائه الحسنى وأدركوا أنّ الله عادل وحكيم لما تفوّهوا ببدعهم أبداً، ولما قالوا بأنّ أعمالهم تلك تنطبق على موازين الدين، ذلك أنّهم لو عرفوا أن الله لا يأمر بالظلم، وأن الله لا يقول ليطأ بعضكم بعضاً وأن يلتهم البعض كدّ البعض الآخر باسم الدين، لما حصل ذلك أبداً.

إن الله سبحانه لا يرضى أن يعيش البعض كلاًّ على الآخرين وأن يكون عبئاً على المجتمع دون أن يفكّر بتخفيف أعباء الآخرين. إنّ رضا الله يكمن في تنفيذ أوامره وإن أوامر الله هي كما ذكرنا آنفاً.

أجل إن ألف باء الدين هي معرفة الله، فكما أن التلميذ في المدرسة إذا لم يدرك المعلومات الأساسية التي تؤهّله لقراءة الكتب فإنه سيكون عاجزاً تماماً عن إدراك مسائل الطبيعة والرياضيات والأدب، فالتلميذ إنّما يتعلّم أوّلاً الحروف التي تتألّف منها اللّغة، فإذا لم يتعلّم ذلك فإنه سيكون عاجزاً عن القراءة وبالتالي فإنه سوف لن يفهم أيّاً من الدروس.

إن معرفة الله هي بمنزلة الحروف الأولى في الدين، فمن عرف الله تمكّن من قراءة خطّ الدين وأدرك المرامي التي ينشدها الدين، أما إذا لم يدرك تلك الحروف فإنه سيخطئ في قراءة كلمات الدين وأوامره ومن ثم سيخطئ في ترجمتها في سلوكه وسيصل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

به الأمر إلى ما عبّر عنه القرآن في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، ولذا قال الإمام علي عليه السلام: «أول الدين معرفته». إن معرفة الله ليست أول الدين فحسب بل وسطه وآخره أيضاً، ذلك أن الذات الالهية المقدسة هي أول الوجود وآخره، مع جميع الموجودات، محيط بها. وإذا أصبح الإنسان موحّداً حقّاً لَهَوَتْ نحوه جميع الفضائل وانجذبت إليه.

(١) سورة الكهف: آية ١٠٤.

الدين سند السعادة

يشعر الكائن الحي بالسعادة والاستقرار عندما تكون حياته ووجوده متناغماً وموافقاً للبيئة التي يعيش فيها، أي عندما تكون الظروف المحيطة به تتفق وحياته الخاصّة، وحياته متناغمة أو منسجمة مع ظروف المحيط؛ فمن البديهي إذا حصل خلل في ذلك التوافق فان هذا الكائن الحي سيكون عرضة للاضمحلال والفناء لأنه جزء يتبع الكل وأن المحاط تابع للمحيط وإذن فإن الكائن الحيّ محكوم بالفناء شاء أم أبى؛ فالشرط الأول للبقاء والسعادة هو تناغم حياة الكائن الحي مع المحيط والبيئة.

الإنسان بدوره كائن حي وهو محكوم بالقوانين التي تشمل جميع الكائنات الحية وهو خاضع لتلك القوانين شاء أم أبى، وإذن شرط بقاء الإنسان وسعادته في الحياة أن تكون حياته متوافقة ومتناغمة مع الظروف المحيطة به من ماء وهواء وضوء وتراب؛ وإضافة إلى هذه البيئة فهناك بيئة أُخرى وهي الجو الاجتماعي الذي يتنفس ويحيى فيه.

فالكائنات التي لا تحيا حياة مدنية واجتماعية لا تعرف معنى الجو الاجتماعي، غير أن الإنسان يعيش حياة اجتماعية.

صحيح أن بعض الكائنات الأُخرى لديها حياة اجتماعية كالنحل أو النمل أو بعض الحيوانات الأُخرى ولكن حياتها هذه محكومة بالغريزة، لا إرادة لها في ذلك،

وحياتها الاجتماعية هذه شبيهة بالمحيط الطبيعي، على عكس الإنسان الذي يعيش جوّه الاجتماعي عن إرادة واختيار، حيث تتجلى صعوبات الحياة البشرية، إذ أننا نعيش في وسط اجتماعي له عاداته وآدابه وتقاليده ومقنّناته، وكل هذه عوامل اجتماعية تحيط بنا، ولذا ينبغي أن يكون ذلك متناغماً مع حياتنا الشخصية، أن تكون حياتنا الشخصية متوافقة مع المحيط الذي نعيش فيه.

غير أن هذا التناغم في حياة الفرد يجب أن يتحقق من خلال مصالح المجتمع العامّة، أي أن الهدف الأصلي للحياة الاجتماعية لا يمكن أن يكون مجرّد مصالح شخصية، يجب أن تكون هناك مصالح عامّة تضمن السعادة والبقاء للجميع؛ ومن البديهي أن المصلحة العامّة تتحقق من خلال مصلحة الأكثرية، ولهذا نرى جميع القوانين في العالم تسنّ من خلال المصلحة الاجتماعية العامّة.

أما التناغم المطلوب في حياة الفرد تجاه المجتمع فهو حالة التسليم والرضا والقناعة بمصالح المجتمع العامّة وغضّ النظر عن بعض المصالح والمنافع الشخصية عندما تصطدم بمصالح المجتمع العليا، وأن يفعل الفرد دونما إحساس بالزجر أو شعور بالغضب.

فإذا كان المجتمع يدور في فلك العدالة، والقوانين الحاكمة مبنية على أساس عادل، أي أن تكون الطبيعة الاجتماعية متناغمة مع الأكثرية من جهة، وكان الفرد متفهما ومدركاً عند تصادم منفعته الشخصية مع المصالح العليا للمجتمع ثم أبدى حالة من الرضا بذلك، كان الأمل بالسعادة الحقيقية كبيراً.

وهنا تتجلّى أهمية وضرورة الدين الذي ينهض على أساس التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد؛ فالدين ضروري في إيجاد التناغم في المعادلتين؛ فهو من جهة يحاول أن يصنع محيطاً اجتماعياً متناسباً مع الحياة الفردية وذلك من خلال تحقيق العدالة الاجتماعية وجعلها مصلحةً عامّة، كما يسعى من جهة أُخرى إلى إحداث تناغم في حياة الفرد مع المصلحة العليا للمجتمع.

فالتناغم المطلوب في حياة الفرد تجاه المصلحة الاجتماعية يتحقق من خلال غضّ النظر بل وحتى الإيثار والإحسان.

فهل يوجد شيء غير الدين قادر على إقناع الإنسان كفرد على الرضا والتسليم للمصلحة الاجتماعية العليا؟.

إن التاريخ البشري ليزخر بمواقف البطولة والفداء والتضحية والإحسان وخدمة الشعوب ومواقف الشجاعة والشهامة أمام الظلم والاستبداد، وهي إنّما تنطلق من الدين والإيمان بالله السميع البصير العليم الحكيم.

فهل هناك قوّة قادرة أُخرى يمكنها أن تنافس الدين في هذا المضمار أو تدعي بقيامها بمهمات الدين حتى ولو بنسبة واحد بالمئة.

نسأله تعالى أن يوفقنا إلى العلم والعمل بأحكام الدين كما أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأن نكون سعداء بذلك.

العبيد والأحرار

قال الإمام علي عليه السلام: «الدنيا دار ممّر لا دار مقرّ، والناس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها».

إن هذه العبارة على قصرها لتزخر بالمعاني العميقة التي لا تترشّح إلاّ من روح مضيئة بنور الله؛ أجل إن خلاصة عمر أغلب الناس، ومع الأسف، هي العبودية وبيع النفس وهدر الشخصية الإنسانية والخسران بتعبير القرآن الكريم، العبودية للشهوات والغضب والحقد والوقوع في أسر العادات والتقاليد الجاهلية التي تتناقض ومنطق العقل، واللهاث وراء الصرعات.

إن البعض من الناس يظنون أنفسهم أحراراً لأنهم ليسوا عبيداً لدى الآخرين، غافلين عن آلاف الحقائق الدقيقة التي هي أدقّ من الشعر، غافلين عن أن العبودية لها ألف شكل وشكل، وأن الأسر له ألف شكل وشكل، غافلين عن أن الطمع هو ضرب من العبودية، وأنّ العادات الجاهلية هي ضرب من الأسر، وأن عبادة المال هي نوع من العبودية.

كان يوسف الصدّيق يُعامل كعبد سنوات طويلة، وكان يباع ويشترى في الأسواق وتتلاقفه الأيدي كبضاعة وينتقل من بيت لآخر، ولم يكن يملك من الدنيا شيئاً، حتى

الطعام الذي يتناوله والثياب التي يرتديها كانت هي الأخرى ملكاً لأسياده، بل حتى ثمار عمله التي يحصل عليها بعد جهدٍ جهيد.

لقد كان يوسف من وجهة نظر مادّية عبداً، غير أنّه أثبت العكس في قصّته مع أجمل نساء مصر عندما رفض جميع الإغراءات بل وجميع التهديدات، وبالرغم من كونه عبداً فقد أعلن بأن روحه حرّة وأنه ليس عبداً للشهوات قائلاً: إني عبدالله وإن ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[1].

إن التاريخ ليزخر بالأمثلة العديدة عن بعض الأفراد الذين كانوا يُعامَلون وبحكم القانون على أنّهم عبيدٌ أرقّاء ولكنهم كانوا أحراراً بنفوسهم وعقولهم وأفكارهم. أليس لقمان الحكيم الذي سُمّيت به إحدى سور القرآن الكريم كان عبداً؟ ولكنه كان في قمّة الحرية بأخلاقه وروحه.

في مقابل ذلك توجد أمثلة عديدة لأشخاص يعتبرون أحراراً من وجهة نظر القانون ولكنهم أسرى وعبيد، فعقولهم مستعبدة وأرواحهم وقلوبهم مستعبدة وأخلاقهم وشهامتهم مستعبدة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾[2] بتعبير القرآن الكريم.

فليس مهمّاً أن يخسر الإنسان في مسرح الحياة حلّته أو يخسر منزله أن يخسر ماله وثروته، أن يخسر منزلته الاجتماعية. الخسران الحقيقي هو خسران النفس وخسران الحرية والشهامة والشجاعة، وخسران المحبة والعاطفة الإنسانية، خسران العقل والإيمان والقناعة.

الناس فريقان كما عبّر عن ذلك عليعليه السلام: فريق «باع نفسه فأوبقها» وفريق «ابتاع نفسه فأعتقها»، فريق يلهث وراء المال والثروة والمقام والهوى والرغبات وزينة

---

(١) سورة يوسف: آية ٣٣.
(٢) سورة هود: آية ٢١.

الحياة، وفريق يسعى لتحقيق شخصيته الإنسانية وبناء نفسه على أساس من العزّة والكرامة والاستقامة والتقوى والعدالة والإيمان. إن القرآن الكريم ليؤكد ذلك ويشير إلى عدم وجود شيء في الحياة له قيمة تجعل الإنسان يبيع نفسه من أجله.

يقول الشاعر:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب   أو أفيضي آبار تكرور تبرا
همّتي همّة الملوك ونفسي   نفس حرٍّ ترى المذلّة كفرا

ذكر الله وحده

الذي يهب الروح السلام

يتعرض جسم الإنسان لبعض الحالات الحسنة والسيئة، وكذلك فإنّ روحه أو نفسه هي الأُخرى تتعرض لحالات متشابهة بالرغم من أن الاختلافات العديدة بين الروْح والجسم، فالجسم مثلاً له حجم ووزن في حين لا تمتلك الروح ذلك، فالقليل من الطعام الذي يرد بدن الإنسان سوف يؤثر على وزنه، ولكن لو أضيف عالم من ا لفكر والعلم لما طرأ تغير على وزنه أبداً.

كما أن سعة الجسم محدودة، أما الروح فلا حدود لها، فكل لقمة يتناولها الإنسان تحتلّ حيّزاً من معدته، وشيئاً فشيئاً تمتلئ المعدة حتى يشعر الإنسان بالشبع ومن ثم يكون عاجزاً عن تناول لقمة إضافية، حيث يبقى كذلك إلى أن تصرّف المعدة الطعام، في حين أن الروح لا تعرف الشبع أبداً، فكلّما غذيتها بالعلم والمعرفة ازدادت جوعاً

وقالت: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، فالروح لا تصرّف المعلومات الأولى لكي تستعد لاستقبال المعلومات الجديدة؛ يقول الإمام علي(عليه السلام): «كل وعاء يضيق بما جُعل فيه إلاّ وعاء العلم فإنه يتّسع».

كما أن الجسد يضعف شيئاً فشيئاً ويشيخ أما الروح فإنها لا تشيخ أبداً. الجسد يموت ويتلاشى ويتحول إلى ذرّات متناثرة، ولكن الروح لا تعرف الموت أو الفناء، الروح باقية تنتقل إلى عالم آخر إذا ما تلاشى الجسد. قال الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم): «خُلِقْتُمْ للبقاء لا للفناء».

في الوقت الذي توجد فيه اختلافات بين الروح والجسد فإن هناك شبهاً بينهما في نواح عديدة، فالجسد لكي يسعد وينشط يحتاج إلى أنواع من الأطعمة والأشربة، والروح هي الاخرى تحتاج إلى غذاء خاص، وغذاؤها هو العلم والحكمة والإيمان واليقين. وكما أن الجسد يذبل إذا لم يصله الغذاء الكافي فإن الروح هي الاخرى تذبل أذا لم يصلها غذاؤها الخاصّ.

يقول الإمام علي(عليه السلام): «إن النفوس تكلّ كما تكلّ الأبدان فاهدوا إليها طرائف الحِكم».

والروح تمرض كما يمرض الجسد، ولذا فهي تحتاج إلى علاج ودواء، فإذا كان الجسد يمرض بسبب خلل ينشأ في ميزان مزاجه أو في مجموع الموادّ التي يتألف منها نقصاً أو زيادة، وبشكل عام خلل في المعادلة التي خلقه الله عليها؛ فإن الروح لها معادلتها وميزانها الخاص بها، الروح تحتاج إلى الحب وتحتاج إلى نظام أخلاقي وتحتاج إلى العلم والمعرفة، وتحتاج إلى الإيمان والعقيدة، وتحتاج إلى سند تعتمد عليه وترجوه في

(١) سورة طه: آية ١٤.

كل أعمالها، وكل هذه الأشياء لازمة لاستقرار وتعادل ميزان الورح وإلاّ فإن أيّ خلل يهدد هذا التوازن سوف يسلب الإنسان سعادته واستقراره وطمأنينته.

إن بعض الناس يشعرون في أعماق نفوسهم بالضجر. إن هذا القدر من الإحساس الذي يحرمهم من تذوق طعم السعادة ويسلبهم الشعور بالاستقرار والسلام يؤدّي بهم إلى الذبول والقلق دون أن يدركوا العلّة في ذلك، فالبرغم من توفر كل أسباب الحياة إلا أنّهم لا يشعرون بالرضا أو السعادة.

إن على هؤلاء الأفراد أن يؤمنوا بوجود جذب روحي.. يجب أن يذعنوا لهذه الحقيقة ويعترفوا بأن الإيمان حاجة فطرية وتكوينيّة بل إنّها أسمى حاجاتنا الإنسانية.

فإذا انتهلنا من نبع الإيمان وأضاء نور الله أرواحنا، وتجلّى الله في أعماق نفوسنا أدركنا معنى السعادة واللّذة والبهجة. يقول الله سبحانه في محكم كتابه الكريم: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]، وقال علي عليه السلام: «إنّ الله جعل الذكر جلاءً للقلوب تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد العشوة وتنقاد به بعد المعاندة».[2]

(١) سورة الرعد: آية ٢٨.

(٢) نهج البلاغة/الخطبة ٢١٧.

الدين وحده الذي يروّض النفس

استقبل الرسول جمعاً من أصحابه وقد عادوا من مهمّة قتالية قائلاً:

«مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر» فظنوا أن الرسول يريد أن يرسلهم في مهمّة أكبر، فسألوه والسيوف في أغمادها ذلك، فقالﷺ: الجهاد الأكبر جهاد النفس وقالﷺ في حديث آخر: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه. وهذا الحديث مثل سابقه يتحدّث عن حرب داخلية، عن إحكام الجبهة الداخلية في الوجود الإنساني، وهذا يدل على وجود صراع محتدم في أعماق الإنسان كما عبّر الرسول عن ذلك.

وهذه حقيقة يؤكّدها علماء النفس إذ أن الإنسان يتعرض إلى حالة من التمزق النفسي في أفكاره وعواطفه ومن ثم ينشأ صراع بين جبهتين، ولهذا نجد أفراداً يقومون بأعمال متناقضة تماماً فهو في لحظة هادئ وديع وفي أُخرى سيّء الخلق، مرة يكون رحيماً عطوفاً ومرة يكون عديم الإحساس قاسي القلب، يجبن مرة ويتهور أُخرى، ومرة يتجه إلى الله واخرى ينصرف وراء الفسق والفجور، في يده مصحف وفي الاخرى الكأس، يوم في حلال ويوم في حرام، لا هو كافر ولا هو مسلم.

ماذا يعني هذا التقلّب في العمل والسلوك؟ من أين نشأ هذا التناقض؟ لماذا يسير البعض متغنجاً مثل طائر الحجلة ثم يتقلّع في مشيه مثل الغراب؟ إن هذا النشاز في العمل والتناقض في السلوك إنما ينشأ عن خلل في الأفكار وتمزق في العواطف.

وإذن يتوجب إنهاء هذا الصراع وإطفاء نار هذه الحروب وإرساء أسس السلام والاستقرار في أعماق النفس لينشأ نوع من السلام الحقيقي الدائم لا الموقت بين الفكر والعاطفة؛ وإلى أن يتم التصالح بين الأفكار والعواطف في ذات الإنسان لا يمكننا إرساء قواعد السلام في المجتمع، وعلى حد تعبير أحد الفلاسفة المعاصرين: «كيف يمكن للمرء الذي يعيش حالة الحرب في ذاته أن يعيش حالة السلام مع الآخرين؟».

وهنا نشعر مرة أُخرى بحاجتنا إلى الدين، ذلك أن أية قوة لا يمكنها ترويض النفس، إذ أن قوى المال أو العلم أو المنصب هي مجرد وسائل تستخدمها النفس وآلات طيعة للهوى والرغبة البشرية، بل إنها تتحول إلى وسائل دمار إذا ما أصبحت في كف من به مسٌّ من الجنون؛ وإذن يجب أن نبحث عن وسيلة أُخرى.

إن مواجهة النفس التي تحاول اجتياح العقل والتغلب على الأخلاق ليست من مهمّات العقل.

إن القوة الوحيدة القادرة على تحقيق هذه المعجزة وكبح جماح ذلك الوحش الكاسر وتحويل ذلك العفريت إلى ملاك للسلام ورأب التصدع والاختلال في الضمير وتنظيم عمل وسلوك الإنسان وإرشاده إلى الطريق القويم إن هذه القوة هي الدين.

إن الدين يزخر بعبارات «الصراط المستقيم» و«الطريق الحق» وفي مقابل ذلك توجد الطرق الملتوية والمعوجّة، فالناس الذين يسيرون في طريق الحق المستقيم هم أولئك الذين يعيشون حالة التناغم والانسجام بين أفكارهم ومشاعرهم، أي بين قوة الخيال وقوة العقل، حيث استسلم شيطان الخيال والوهم إلى ملاك العقل، وحلّ

الانسجام بين أحطّ الغرائز والرغبات إلى أسمى العواطف والمشاعر الإنسانية النبيلة، وانقادت الشهوات إلى الفطرة الطاهرة.

أسأل الله أن يوفّقنا جميعاً إلى السير في صراطه المستقيم، وأن يُجنّبنا الانحراف عنه يميناً أو شمالاً.

طريق السعادة

قال سبحانه في قرآنه الكريم: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[1].

ربما يبدو هذا الأمر بسيطاً ويسيراً، ذلك أن كل إنسان يتمتع بقدر من الشعور والإدراك إذا ما أراد أن يدخل بناءاً ما كأن يكون منزلاً أو دائرة فإنه يدخل من خلال الباب ولا يعبر الجدار، وهذه قاعدة عامّة لا تنحصر بالمنزل أو الدائرة بل تتعدى ذلك لتشمل كل شؤون الحياة. فالحياة والسعادة تشبه بناءاً مبنياً باللبن والطين وله أبواب، وعلى الإنسان أن يعرف تلك الأبواب أولاً ثم يعوّد نفسه عليها ثانياً أي يسلك الطريق المستقيم والسويّ لدخول الحياة ومن ثم البحث عن السعادة.

وهذه القاعدة العامّة في حياة البشر تحتاج إلى بصيرة لتشخيص السبل الصحيحة للدخول إلى دائرة الحياة لكي لا يبقى المرء خلف جدرانها عاطلاً حيراناً.

إن العديد من الناس يقضون أعمارهم خلف الجدران بمنأى عن السعادة مردّدين: «لم نفهم شيئاً من الحياة، إنها بلا معنى» وهؤلاء يقضون حياتهم حيارى ضائعين وقد تتعاظم حيرتهم فتتحول إلى نوع من التشاؤم والحساسية ومن ثم الغرور فإذا بهم

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

يدّعون اكتشاف حقيقة الحياة وزيفها ووهم السعادة وخيالها مؤكدين أصالة الألم والشقاء، ولأن الآخرين لا يتمتّعون برهافة حسّهم؛ فإنهم لا يدركون هذه الحقيقة!.

إن هؤلاء أنفسهم لا يدرون انعدام الرؤية لديهم وبقاءهم خلف جدران الحياة وقد قضوا أعمارهم دون أن يعثروا على باب يمكنهم من الدخول.

لقد تصوّروا أول حفرة صادفتهم طريقاً وعلى أساس هذا التصوّر الخاطئ كانوا ينأون عن الطريق الصحيح يوماً بعد آخر فإذا هم يقضون عمرهم في الحفر المظلمة، وعلى حد تعبير أحد العلماء: لقد هيأوا أنفسهم للإحساس بالألم والشقاء فإذا بهم يصرخون ويتألمون لأقل شيء يصيبهم وقد تبلّدت أحاسيسهم تجاه أسباب السعادة.

قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وينبغي الاشارة هنا إلى أن القرآن الكريم في هذه الآية المباركة لا يعتبر الكفار والمسيئين أحياءً، ذلك أنّ شرط الحياة الحقيقية والشعور بالسعادة هو الإيمان، وعندها يدرك المرء أن الحياة حافلة بالمعاني زاخرة بالسعادة، فإذا هم يعيشون أوقاتهم دون ألم وشقاء وعذاب.

لقد أوضح الأنبياء طريق الحياة وبعبارة أُخرى أشاروا إلى الباب الذي ينفتح على الحياة الحقيقية والسعادة.

لقد جاءوا ليعلّموا الإنسان بأن الكذب والخيانة وعبادة الذات والمصالح الشخصية والأحقاد الدفينة ليست طرقاً للوصول إلى السعادة والطمأنينة، إن طريق السعادة هو الصدق والاستقامة والإحسان والأخلاق الحسنة، وعمل الخير والعطف؛ إن الإيمان

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

بالغيب ومن ثم الإحسان انطلاقاً من ذلك الإيمان هو وحده الذي يهب القلب الطمأنينة والشعور بالسعادة.

وقد ورد في الحديث الشريف: «إن الله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين والهمّ والحزن في الشك والسخط»[1]

واليقين هو الإيمان المتين والثابت بأن لهذا الكون مدبّر حكيم وأنه أرسل الأنبياء مبشّرين ومنذرين، وأنه لا مفرّ من يوم الجزاء عاجلاً كان أم آجلاً، فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره، وأما الرضا فهو الطمأنينة والتسليم إلى حكم الله وفرائضه وأداء الواجبات.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء له: «اللّهم صل على محمد وآل محمد وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان واجعل يقيني أفضل اليقين وانتهِ بنيتي إلى أحسن النيّات وبعملي إلى أحسن الأعمال»[1].

وهذا منتهى السعادة التي ينشدها الإنسان: طمأنينة في الفكر، وطهارة في القلب، وإحسان في العمل، فالحياة الطاهرة هي الحياة السعيدة.

(١) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٥٩.
(١) دعاء مكارم الأخلاق.

أركان السعادة البشرية

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

في هذه السورة المباركة يشير القرآن الكريم إلى أن السعادة البشرية إنما تنهض على أربعة أركان: الأول هو الإيمان، والثاني العمل الصالح، الثالث التواصي بالحق، أمّا الركن الرابع فهو التواصي بالصبر.

والإيمان هو الركن الأساسي في الحياة الإنسانية، فالإنسان بما هو إنسان لا يمكنه أن يعيش سعيداً مطمئناً ناعم البال دونما إيمان، كما أن النشاط الإنساني يحتاج إلى قاعدة يستند إليها وينطلق منها وإلاّ عمّت الفوضى وساد الإضطراب وفقد الإنسان إقباله ورغبته في الحياة.

لو نظرنا إلى الحيوان وتأمّلنا في سلوكه لأدركنا عدم حاجته إلى ما ندعوه بالإيمان، ذلك أن النشاط الحيواني محدود ولا يتعدّى دائرة الطعام والشراب والنوم ورعاية الصغار كحد أقصى، وهو ينطلق بنشاطه من منطلق الغريزة، فالظمأ أو الجوع هو الذي يحرّكه دون تردّد للبحث عن الماء والكلأ.

لو كانت دائرة النشاط الإنساني محدودة ومحصورة بالغرائز لما احتاج الإنسان في عمله إلى قاعدة يستند إليها سوى الغريزة، ولكن ما العمل ودائرة الإنسان واسعة جداً لا تحدّها حدود، فأول شيء يمتاز به الإنسان عن الحيوان هو أنه كائن اجتماعي، والحياة الاجتماعية هذه سبب في استفادته وإفادته للآخرين، فهو من جانب مكلّف بأداء وظيفته تجاه المجتمع، ومن جانب آخر يقدّم له المجتمع مختلف أشكال الخدمة.

وهنا تتجلّى الغريزة الإنسانية عن دورها في رسم السلوك الإنساني وتنعدم تلك البساطة والسهولة بل واللّذة والفرح في القيام بأعماله الطبيعية، وعلى هذا الأساس يتحمل الإنسان مسؤوليته ويشعر بثقلها على عاتقه، إذ يتوجب عليه الصدق والأمانة والتضحية والإنصاف والعدالة والتقوى والعفّة، في حين تقتضي منفعته وطبيعته الشخصية العكس، فلتحقيق لذائذه تتطلب منه الكذب والخيانة والسرقة وأن يتخلّى عن ثوب التقوى والطهارة والعفّة ليمكنه نيل مراده. وهنا يرى الإنسان نفسه أمام قرارات كبرى تخالف طبيعته ومنافعه الشخصية؛ ومن المحال أن تقنع نفسه بالفضائل دون قاعدة تنطلق منها أو تنهض عليها وهي الإيمان، الركن الأول في السعادة البشرية.

الركن الثاني هو العمل الصالح فمن الممكن أن يؤمن الناس لكنهم لا يقومون بالأعمال الصالحة، وقد يبدو قبول هذا الأمر صعباً في الوهلة الاولى. إذ كيف يؤمن الإنسان دون أن يتجلّى إيمانه بالعمل الصالح؟!.

لا ينبغي التعجب من ذلك، ذلك أن البعض من الناس يؤمنون بالمبادئ السامية: يؤمنون بالله والأنبياء والكتب السماوية ولكنهم وبسبب بعض الانحرافات والفهم الخاطئ يظنّون أن المطلوب فقط هو الإيمان ولا أهمية للعمل.

وقد يوجد البعض ممن يعمل وينطلق بعمله هذا من منطلق الإيمان والعقيدة ولكنه يخطئ في تشخيص ذلك، فهو يقوم بسلسلة من الأعمال منطلقاً من إيمانه وعقيدته دونما فائدة أو أثر يترتب عليها.

إننا نشاهد الكثير من الناس ممن يعانون ويقاسون في قيامهم بأعمالهم تلك دون أثر للإحسان، وإذا بسعيهم هذا يبقى دونما معنى أو فائدة.

الركن الثالث في سعادة البشر هو التواصي بالإيمان والحق والعمل الصالح، فليس المطلوب من أفراد المجتمع الإيمان والعمل الصالح فحسب بل والتواصي بذلك أيضاً بشتى الوسائل قولاً وفعلاً وأن يشجّع بعضهم بعضاً بشكل يظهر فيه المجتمع ملهماً لأفراده عمل الخير، لا أن يكون ـ لا سامح الله ـ منطلقاً وملقّناً لأفراده الفساد والانحراف والعمل السيّء.

الركن الرابع وهو التواصي بالصبر والاستقامة والثبات، ذلك أن الحياة لا تمضي وفق ما يريده الناس، وعواصف الدهر لا تهب دائماً في الجهة المطلوبة والرياح لا تجري بما تشتهي السفن، ولذا فإن على أفراد المجتمع مواجهة حوادث الزمن ونوائب الدهر، وأن يتواصوا بالصبر والثبات والاستقامة.

قال سبحانه في محكم كتابه الكريم: ﴿وَأَن لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[1].

(١) سورة الجن: آية ١٦.

الإيمان والعمل الصالح

يزخر القرآن الكريم ببعض العبارات ذات الدلالة والأهمية الخاصّة، ومن هذه العبارات: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1]

إن إقران الإيمان بالعمل الصالح دائماً إنما يشير إلى الأهمية التي يوليها القرآن الكريم إلى هذه المسألة باعتبارها قاعدة تنهض عليها السعادة الإنسانية، وينبغي الإشارة هنا إلى أن الإيمان الذي يدعو له القرآن هو الإيمان بالذات المقدسة التي هي أساس الإيمان بجميع حقائق العالم.

وينبغي هنا أن أشير إلى جملة أمور:

الأول: أن الإيمان ركن رئيسي في حياة الإنسان، أي أن يعتقد بشيءٍ ما ويعتبره حقيقة عليا ينقاد لها ويعتمد عليها؛ وإن من أسوأ حالات الإنسان هي عجزه عن الإيمان بحقيقة معيّنة وفي هذ الحالة سيصبح مشوش الأفكار والمشاعر وسيكون العالم في نظره مشوشاً وصورة منعكسة لأفكاره المضطربة.

الثاني: من الأفضل أن يكون الإيمان بشيء مقدّس وسامٍ بحيث يخضع الإنسان له ويضحّي من أجله؛ وبعبارة أُخرى من الأفضل أن يمتلك الإنسان في هذه الدنيا عقيدة

---

(١) سورة البقرة: آية ٨٢.

يدافع عنها ويستلهم سلوكه منها، لا أن يبقى مذبذباً ومضطرباً؛ ولكن ليست كل العقائد والمبادئ مقدّسة وليست كل العقائد تستحق التضحية في سبيلها؛ هناك الكثير من العقائد والمذاهب لا تتعدّى المصالح الشخصية والأنانية؛ ومن الطبيعي إذا كانت العقيدة تدور في فلك المصلحة الشخصية وتستمد جذورها من عبادة الأنا فإنها لا تستحق من الإنسان التضحية في سبيلها. إن التضحية من أجل هكذا عقائد ومذاهب تنطلق من لا شيء هو مجرد جنون.

إن العقيدة التي تستحق من الإنسان أن يجاهد في سبيلها ويضحّي من أجلها ينبغي أن تكون فوق جميع المصالح الفردية المادّية.

الثالث: ينبغي أن يؤمن الإنسان بشيء يسمو فوق جميع المقدّسات بحيث يكون الإيمان به إيماناً بجميع الحقائق.

لقد أثبت الفلاسفة الإلهيون بأنّ «الذات الأحدية هي منشأ جميع الحقائق» فإذا كان الإيمان خالصاً فإنه سيكون إيماناً بجميع الحقائق ذلك أنها تنبعث من ذاته المقدّسة وتنهل من فيض نبعه الأزلي.

يعبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾[1] ولم يقل الحق مع ربّك؛ فالله أسمى من أن نقول أنه مع الحق بل هو الحق وكل حق إنما ينبع من ذاته المقدّسة.

إن الإيمان الذي يشير إليه القرآن هو الإيمان بالله الذي يعني الإيمان بالعلم والحكمة والقدرة والنظام والتدبير والعدالة.. الإيمان بأن كل ما في هذا العالم حق.

وأما الركن الثاني فهو العمل، والمراد هنا العمل الصالح وليس مطلق العمل.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤٧.

الإنسان يتألف من روح وجسد، من قلب و قالب، وعليه ينبغي أن يكون الإيمان في القلب لكي لا يبقى حيراناً ضائعاً، فتطمئن روحه، وفي جانب البدن ينبغي أن يكون كالشجرة المحمّلة بالثمار.

عالمنا عالم متحرّك، عالم عمل ونشاط، من أكبر المجرّات في السماء إلى أصغر الذرات وأدقّها والتي تمكّن الإنسان من اكتشافها؛ كل شيء في حالة عمل وحركة ونشاط، لا توجد ذرّة واحدة أو قطرة واحدة دون عمل.

الإنسان هو الآخر لا يستثنى من هذه القاعدة العامة. إن الإنسان وبحكم الضرورة لا يتوقف عن العمل، فالروح والمخّ في حالة عمل مستمر وفي حالة من الحركة المتواصلة، انتقال من خاطرة إلى أُخرى ومن تصور إلى آخر، حتى في حالة النوم حيث يبدو المخ في استراحة ظاهرة فهو في حركة ونشاط مستمرّين؛ كذلك الجسم فهو في حالة من النشاط الدائب، إذ لا مفرّ من رؤية الأشياء والنظر إليها، ومن الاستماع إلى الأصوات المختلفة؛ غير أن دائرة عمل الإنسان أوسع لأنه كائن يتمتع بالحرية والاختيار، فهو من ناحية يمكنه أن يكون مفيداً في علمه، ويمكنه كذلك أن يكون مدمّراً، يمكنه أن يخطو في طريق الكمال والسعادة لنفسه والآخرين، ويمكنه السير في طريق الشقاء؛ ولهذا فهو يحتاج إلى هداية وإرشاد، وإلى من يقول له أن عمله ينبغي أن يكون صالحاً.

فلو تركت الروح لحالها فإنها ستعيش خواطر الماضي وتتحرك في إطارها كما لو أنها تدور في فلك ثابت لا تتقدم فيه نحو الأمام خطوة واحدة، ولكنها لو وجّهت فكرياً وأضحى عملها مفيداً بحيث تنتج أفكاراً جديدة ومفيدة، وأصبحت مصداقاً لحديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكّر ساعة خير من عبادة ستين سنة» كان عملها صالحاً.

إن الإنسان لا يمكنه البقاء عاطلاً عن العمل روحاً وجسماً، وإذن عليه أن يسعى في أن يكون عمله صالحاً. فالقرآن الكريم لم يذكر العمل مطلقاً بل قرنه دائماً بالصلاح ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وإذن فإن السعادة الإنسانية تقوم على ركنين: الإيمان والعمل، ليس مطلق الإيمان وليس مطلق العمل، بل الإيمان بأقدس وأسمى الحقائق، التي يكون الإيمان بها إيماناً بجميع الحقائق، وهو الإيمان بالذات الأحدية التي هي مبدأ العلم والقدرة والنظام والحكمة والحياة والسعادة، ومن ثم العمل الصالح الذي يدفع بالإنسان نحو الأمام في طريق التكامل والسعادة.

ذل المعصية وعزّ الطاعة

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «من أراد عزّاً بلا عشيرة وغنىً بلا مال وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى عزّ طاعة الله»[1].

لا شك أن المال يسدّ بعض حاجات الإنسان وأن العشيرة تمنحه العزّة والمنعة والاحترام وتعزّز مركزه الاجتماعي؛ إلا أنّ هذه الامور محدودة باعتبارها وسائل مادّية لا تتيسّر لكل الناس، إذ لا يمكن أن يكونوا أثرياء جميعاً بحيث يسدّون كل ما يلزمهم، وهذه المسألة تنسحب على العشيرة أيضاً، فليس كل الناس تتوفر لديهم هذه الميزة، بل إنها تنحصر في أفراد معينين.

ولذا فإن الله سبحانه جعل الغنى والعزّة والهيبة في امور اخرى بحيث يمكن توفيرها لجميع الناس على حدٍّ سواء، ولا يستلزم ذلك منهم شيئاً سوى بعض المعاناة، وهو أن يبنى الإنسان المتّقي المؤمن بالله والمعافي أخلاقياً وروحياً هو بحد ذاته سيكون محترماً ومحبوباً لدى جميع الناس، إضافة إلى ما ينطوي عليه هذا الحب من التعظيم والهيبة والإجلال.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٨/ص ١٩٢.

فإذا ما عرضت له حاجة بادر الجميع إلى قضائها معتبرينه كأحدهم، فهو شريكهم في حياتهم وسعادتهم.

إن النعم المادّية محدودة ومقسّمة، فإذا أصبح الإنسان وكل همه سدّ حاجاته المادّية فلن يصل إلى هدفه أبداً؛ ذلك أن الإنسان كلّما حقّق أمنية من أمانيه طمح إلى اخرى أكبر منها، فهو في حالة من الاضطراب الدائم والقلق، بعيداً كل البعد عن الطمأنينة والرضا اللذين هما رمز السعادة.

إنّ الامور المعنوية هي التي تهب الطمأنينة للإنسان، وقد قال العظماء: «إن الأماني الباطلة مثلها مثل الماء المالح، فهو لا يروي الإنسان أبداً بل يزيده ظمأ حتى يقتله». لقد قالوا ذلك لكي نعتبر ونخرج عن دائرة الطمع ومدار الحرص ونبني حياتنا على أساس صحيح يضمن لنا السعادة؛ لم يقولوا ذلك لي يدفعونا إلى الكسل والخمول وعدم المسؤولية.

على الإنسان أن يشق طريقه في بحر الحياة المتلاطم إلى أن يصل إلى الشاطئ المنشود، وفرق بين حركة سفينة العقل والعلم وبين السقوط في هاوية الحرص والطمع والتكالب.

فهناك من يدور في إحدى الدوّامات البحرية العنيفة. إنه يتحرك بالطبع ويدور ولكنّ حركته هذه لن تقوده إلى ساحل النجاة أبداً بل العكس من ذلك تماماً.

إن من اسس الحياة هي الحركة والسير في الصراط المستقيم حيث طريق الأنبياء منذ فجر التاريخ، وإلاّ فهو السقوط في مهاوي الحرص والطمع والجنون، واللهاث وراء تكديس الثروة والأموال من أجل لا شيء؛ فالثروة وبغض النظر عن جانبها الاجتماعي وما ينتج عنها من هدر لحقوق المجتمع تعتبر ذنباً كبيراً حتى على مستوى الفرد نفسه، ذلك أنه يتحمل في سبيلها شتى أنواع العذاب، ويهدر كل عمره في سبيل الحفاظ عليها ومضاعفتها دون أن يترك لنفسه وقتاً للمطالعة والتأمّل والانتهال من ينابيع الروح، بل

إنه لا يستفيد من ثروته شيئاً، إذ يمكنه أن يسخّرها في سبيل راحته، ولذا فهو يعيش في شقاء مستمر، ناهيك عن مسؤوليتها في الآخرة.

يقول الامام علي عليه السلام: «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الإغنياء»[1].

فالبخيل الذي يخاف الفقر ويكدّس أمواله ويحرص عليها ويعاني في ذلك ما يعاني، هو في الحقيقة يعيش حالة الفقراء، التي يخاف منها، أمّا الغنى الذي ينشده فهو بمنأى عنه، بل إنه يبتعد عنه يوماً بعد آخر، وبالرغم من كل ذلك فإن حسابه سيكون حساب الأغنياء.

أجل هذا هو الانحراف عن الجادّة الصحيحة والصراط المستقيم والسقوط في هاوية الأمراض النفسية كالبخل والحرص والطمع وجنون الشهرة والشهوة وغيرها، فالعظماء من البشر لم يطلبوا منّا الحرمان من النعم الالهية بل أرادوا إنقاذنا من هذه المهاوي.

(١) نهج البلاغة/ باب الحكم رقم ١٢٦.

قيمةُ العُمر

من بين الأحاديث الشريفة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هناك مجموعة من الوصايا يخاطب فيها النبيّ شخصاً معيّناً وهي مثبتة على شكل بيانات طويلة ومفصّلة؛ فهناك حديث طويل له مع علي عليه السلام وآخر له مع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وثالث مع أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أراد من وراء ذلك أن تكون مسؤولية المحافظة على تلك الوصايا الأخلاقية العامّة على عاتق ذلك الشخص المخاطب، فقد كان صلوات الله عليه يوصي أصحابه بحفظ ما يسمعونه منه وإبلاغ الجميع بذلك «وليبلغ الشاهدُ الغائبَ» بنص الحديث، وعلى أساس هذه التوصيات النبوية ظهر «علم الحديث» في الإسلام حيث تناقل المسلمون أحاديث النبي صلوات الله عليه وآله بكل دقّة وأمانة جيلاً بعد آخر؛ وأعقب ذلك ظهور علم آخر هو «علم الرجال» وهو يُعنى بأحوال رواة الحديث ومدى ثقتهم وأمانتهم في نقل الأحاديث الشريفة.

في هذا اليوم أنقل لكم واحدة من وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا ذر إياك والتسويف بأملك فإنك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غدٌ لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غدٌ لك لم تندم على ما فرّطت في اليوم».

«يا أبا ذر كن على عمرك أشح من على درهمك ودينارك»[١].

إن هذه الوصية العظيمة تدعو الإنسان إلى اغتنام العمر والاستفادة من فرصة الحياة.

ومع الأسف الشديد فإن هذا الوقت والزمن الطويل المتذبذب الذي يطلق عليه العمر هو من أدنى الأشياء قيمة لدى الناس.

إن دورة العمل بالنسبة لكل إنسان هي في الواقع مدرسة، فكما أن الدقيقة والساعة واليوم لها أهميتها في المدرسة، وتلك الفرصة المعدودة بالدقائق عندما يدقّ الجرس بين كل درس وآخر وضعت من أجل تحديد القوى والاستعداد للدرس المقبل والاستفادة منه بأكثر ما يمكن فإن عمر الإنسان هو الآخر يجب أن ينظم على هذا الأساس بحيث لا تذهب فيه الساعات والدقائق هدراً دون فائدة ما.

يعتبر العلاّمة الحلّي واحداً من أسطع النجوم في سماء الإسلام، وكان إضافة إلى مؤلفاته العديدة في الفقه قد ألّف في مختلف العلوم الإسلامية العقلية منها والنقلية.

لقد كان هذا الرجل تلميذاً لدى الفيلسوف والرياضي الكبير نصير الدين الطوسي، وكان يلازمه ليل نهار، وذكر عن استاذه قائلاً: إنه لم يترك في حياته وفي المدة التي لازمته فيها مستحبّاً شرعياً إلاّ وقام به. لقد نظّم حياته بحيث يؤدي العمل المناسب في الوقت المناسب، فحتى تلك الفرصة للاستراحة والترفيه تأتي في وقتها المناسب وضمن الحدود الشرعية. فالطالب الذي يهتم بدرسه ويصغي إلى ما يقول الاستاذ تكون ساعة استراحته مفيدة وبمستوى الساعة التي قضاها في الدرس من حيث قيمتها الشرعية. إن من شروط النجاح أن يدرك الإنسان قيمة الوقت.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٧/ص٧٥.

لو أن شابّاً ورث عن أبيه ثروة ضخمة وكان سفيهاً فأسرف وبذر فإن الجميع سيأسفون لذلك الشاب ويعجبون لشأنه ويرقّون لحاله لعلمهم بما ستؤول إليه العاقبة من شقاء وندم.

لقد صادفنا جميعاً مثل هذه الحالة وتأسّفنا لذلك، إلا أننا لم نعر أية أهمية ازاء التبذير والإسراف في ثروة هي أهم بكثير من المال ألا وهي وقتنا وعمرنا؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّنا ندرك جيداً قيمة المال ولا ندرك أبداً قيمة الوقت والزمن.

إننا نشاهد الكثير من الناس ممّن ربّوا أنفسهم لا يعتدون على أموال الآخرين فهم يخافون الله في درهم يأكلونه بالباطل، وإذا ما حدث وتضرّر أحد الناس سارعوا إلى جبران خسارته من أموالهم، ولكن هؤلاء الأشخاص أنفسهم لا يهتمون بوقت الآخرين ولا يولونه أدنى حرمة، إذ نراهم يهدرون الوقت بأعذار شتّى، كأن يخلفون الوعد مثلاً.

إن هذا يدل على أننا لم نهضم تماماً وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في أنّ حرمة الوقت والعمر أسمى من حرمة المال. فلو أنّا أتلفنا مالاً لأحد الناس استطعنا أن نجبره من أموالنا، ولكن لو أتلفنا جزءً من عمره فهل يمكننا أن نجبره من أعمارنا؟

قال الإمام علي عليه السلام: «فسابقوا - رحمكم الله - إلى منازلكم التي أُمرتم أن تعمروها والتي رغبتم فيها ودُعيتم إليها واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته، فإنّ غداً من اليوم قريب، ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر»[1].

(١) نهج البلاغة/ خطبة رقم ١٨٨.

ويشير القرآن الكريم إلى اولئك الذين ضيّعوا أعمارهم حتى إذا أدركوا ما آلت إليه عاقبتهم قالوا: ﴿ارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾[1] فيأتيهم الجواب: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

يُذكر عن أحد الأولياء أنه حفر قبراً له في منزله فكان ينام فيه بين حين وآخر، ويوحي إلى نفسه بإنّه قد مات، ثم التمس من الله أن يعيده إلى الدنيا، ليجبر ما قام به من ذنوب ويتوب إلى الله فيعمل صالحاً ويرضاه. هكذا كان هذا الرجل يعظ نفسه ويربّيها.

إن على الإنسان أن لا يغفل إلى هذا الحدّ بحيث يحتاج إلى هذا القدر من العمليات الموحشة ليتذكّر ويستيقظ. ينبغي عليه أن يكون أكثر فطنة من ذلك لأن الكون كله في حركة مستمرة لا يتوقّف حتى لحظة واحدة، كذلك إن الإنسان نفسه في حالة من التغير المستمر، فقد مرّ بعهد الطفولة ثم الشباب ثم يتّجه نحو الشيخوخة، وإنه في كل هذه الفترات في حالة زرع مستمر إلى أن يلقى ما زرع في حياته.

إن من أكثر الأشياء التي ذمّها الدين هي طول الأمل حيث ينعكس ذلك بتضييع الوقت وتسويف الإنسان لنفسه في أن يعمل صالحاً في المستقبل دون أي ضمان في أنه سيعيش إلى ساعة بل إلى لحظة أُخرى. يقول الإمام علي عليه السلام: «أخوف ما أخافه عليكم، اتباع الهوى وطول الأمل».

نعود مرّة اخرى إلى وصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح وخذ من صحّتك قبل سقمك وحياتك قبل موتك فإنك لا تدري ما اسمك غداً»[1].

---

(١) سورة السجدة آية ١٢.

(١) بحار الأنوار ج٧٧/ص٧٥.

الدنيا مزرعة الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا مزرعة الآخرة».

قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[1].

ثم يقول سبحانه: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[2].

إن كلمة الرب تعني في هذه الآية أن الله يمدّ الجميع بفيضه، ذلك أنه خالق العالم وخالق جميع الموجودات، فمن خصائص الربوبية أن يرزقهم جميعاً لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر.

نعم، إن ناموس العلم يقضي بأن كل بذرة تزرع تنمو في أحضان الوجود، هناك نظام مساعد يرعى هذه الزراعة.

إن الأعمال التي نقوم بها حسنة كانت أو سيئة كلمها بذور تنمو في مزرعة هذا العالم، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا مزرعة الآخرة». وكل امرئ يحصد ما يزرع. لا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٨-١٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

يضيع عمل في هذا العالم، بل إنه ينبت في أعماق أرواحنا وفي أعماق المجتمع، ومن ثم في طيّات هذا العالم الذي تحيطه شتّى العوامل المساعدة على النمو.

قال سبحانه في محكم كتابه مشيراً إلى الجدل بين النصارى واليهود وطائفة من الذين آمنوا: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١).

كلٌّ يلقى جزاء عمله وثمرة ما قد زرعه؛ فالقانون الالهي لا يقبل التغيير، وهذا ما بشّر به جميع الأنبياء عليهم السلام. لقد جاءوا يعلّمون الإنسان أن «الحمد لله رب العالمين» لا حمد إلا للذات الالهية المقدسة ربّ جميع الموجودات، والتي تنطوي على الاستعداد الذي يوصلها إلى الكمال المنشود؛ فحبة القمح تنمو لتصبح نباتاً مكتملاً، وحبّة الشعير هي الاخرى تنمو فتصبح نباتاً محمّلاً بالسنابل، كذلك النواة تنمو فتنشأ عنها نخلة هيفاء.

إن مقام الربوبية يقضي بأنّ جميع الموجودات في حالة نمو وتكامل، ولذا فإن سعادة كل إنسان إنما تتوقف عليه نفسه، عليه أن يدرك بأن كل عمل يقوم به إنما هو بذرة يزرعها في مزرعة الوجود وإنه سيذوق ثمرة ما قد بذر حلوة كانت أم مرّة، ذلك أنه لا يستطيع أن يذوق أو يستفيد من ثمار إنسان آخر، كما أن أي انسان لا يمكنه أن يستفيد أو يتناول من ثماره، وإن أي إنسان لا يمكنه أن يزرع السيئات فيحصد منها الحسنات.

(١) سورة البقرة: الآية ١١٣.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي ابنته الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام والتي كانت تحتلّ من قلبه منزلة لا يدانيها فيها أحد، وكان يعتبرها فلذة كبده، كان يوصيها بقوله: «إني لا أُغني عنكِ شيئاً».

وهذه حقيقة كثيراً ما كان الرسول يؤكدّها منذ فجر الدعوة الإسلامية فقد جمع رجالاً من عشيرته الأقربين وذلك بعد بعثته صلى الله عليه وآله وسلم وأنذرهم قائلا: (يا بني عبد المطلب لا تقولوا محمد منّا، فوالّذي نفسي بيده لا أُغني عنكم من الله شيئاً، وإن كل امرئ وما كسبت يداه خيراً فخير وإن شرّاً فشر).

طلب أحدهم من أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يعظه فقال عليه السلام: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويرجو التوبة بطول الأمل»[1].

(١) بحار الأنوار ج٧٧/ ص٤١٠.

الإنسان مربي نفسه

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا وزنوها قبل أن توزنوا»[1].

إن هذه الوصية على قصرها لتزخر بالمعاني والفوائد الكبيرة، ذلك أن أي إنسان متحضر لا يشكّ أبداً بضرورة التربية، فكما أن الوردة أو الشجرة أو الحصان يحتاج إلى التربية، كذلك الإنسان. وهذه المسألة لا تحتاج إلى توضيح وإن أكثر الناس تخلّفاً يدرك ذلك؛ ولذا نشاهد المجتمعات البدائية تعيش على الزراعة أو تربية الماشية. قد يخطئ أولئك في اسلوب التربية سواء في النبات أو الحيوان ولكنهم على كل حال يعتقدون بضرورة التربية في هذا المضمار.

وفرق كبير بين الإنسان المتحضّر والإنسان المتخلّف، فإذا كان الأخير يعتقد بأنّ الإنسان ليس حيواناً أو نباتاً حتى يحتاج إلى التربية فرئيس القبيلة يرفض رفضاً قاطعاً

(١) نهج البلاغة/ خطبة رقم ٩٠.

إن الإنسان المتحضّر لا يفكّر أبداً على هذا النحو، بل على العكس من ذلك فهو يعتقد أن ابنه باعتباره إنساناً يحتاج إلى التربية والرعاية أكثر من الوردة والشجرة أو الحمامة والحصان.

فكما أن النباتات باعتبارها موجودات تنبض بالحياة هي أكثر كمالاً من الجمادات فإنها تحتاج إلى التربية للوصول بها إلى الكمال المنشود، ولأن الحيوانات أرقى كمالاً من النباتات فيه تحتاج إلى التربية أكثر، وهكذا بالنسبة للإنسان. إنه كائن أرقى وأسمى كمالاً من الحيوانات، بل إن وجوده العظيم بحاجة ماسّةٍ إلى التربية والأخلاق والأدب.

الإنسان مرتبة اخرى من الوجود تفوق عالم النبات وعالم الحيوان، وإن قولنا بأنه يحتاج إلى التربية ليس معناه أن نسلم الإنسان إلى من يعنى به. صحيح أنه بحادة إلى معلّمين ومربّين يهدونه ويرشدونه ويصقلون وجوده، غير أن الإنسان ليس معدناً أو حجراً ثميناً لكي نسلّمه بيد صائغ ماهر ثم نطلب منه صياغته من كل النواحي.

الإنسان كذلك ليس نباتاً لكي نودعه لدى المزارع ونعتبره مسؤولاً عنه من جميع الجهات؛ الإنسان وبالرغم من احتوائه على جوانب النبات وخصائص الحيوان يمتاز بالعقل والإرادة، وهما يرفضان رفضاً قاطعاً الانصياع إلى العوامل الخارجية؛ إنه ليس معدناً أو حجراً حتى يستجيب لإرادة الصائغ، كما أنه ليس نباتاً ينمو لدى كل أحد، وليس ببغاءً فيلقّن بما يراد له أن يقول؛ إنه كائن يتمتع بالحرية والاستقلال والإرادة التي قد ترفض الخضوع لشتّى أنواع المؤثرات، إذ من المستحيل إجبار الإنسان على عمل ما، إذ لابد أن يحصل في النهاية نوع من التفكير ثم صدور القرار.

إن عمل الإنسان لابد وأن يسبقه فكر وإرادة، ومن لا يفكر لنفسه لا ينفعه تفكير الآخرين، ومن لا يقرر بنفسه لا يجديه أن يقرر في شأنه الآخرون؛ وقد قال بعض

الحكماء: «من لم يجعل في قلبه واعظاً من نفسه لا تنفعه مواعظ الواعظين» أو «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».

كل هذا على أن الإنسان يختلف عن سائر المخلوقات في مسألة التربية، إذ أن العوامل الخارجية وحدها لا تكفي. يجب أن يكون في داخل كل انسان واعظ من نفسه، أي تنشأ في داخل النفس شخصيتان الأولى تأمر والثانية تطيع، الاولى تلوم والاخرى تتقبل الملامة، الاولى تحاسِب والاخرى تتقبل الحساب.

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله: ﴿النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1] أي التي تلوم الإنسان على أخطائه فهي دائمة التقريع له والعتاب؛ لا أحد يفكر في إنكار هذه الحقيقة أبداً ولا أحد لم يشعر بها، ذلك أن كلاًّ منّا قد ارتكب خطأ ما صغيراً كان أم كبيراً، ولا يوجد أحد لم يتعرض إلى هذا الاستجواب الالهي.

وإذن فإن الجميع قد حدث لهم مثل ذلك بحيث تتشكل محكمة داخل نفوسهم يقف فيها الإنسان متّهماً ملوماً مدحوراً.

إن هذه الثنائية من خصوصيات الإنسان، وهي في الحقيقة ليست ثنائية أي أن الإنسان لا ينطوي على روحين أو نفسين إحداهما تحكم والأُخرى محكومة، بل هناك تركيب عجيب يتألّف من مجموعة غرائز وميول ينطوي عليها هذا المخلوق العجيب الذي يدعى «الإنسان».

لو أراد شخصان التعاون في إنجاز عمل ما فإنهما يتعاهدان على ذلك، وخلال مدة التعاون يراقب كل منهما الآخر، فإذا ظهر في نهاية العام وعند تسوية الحساب وضبط الوارد والصادر والربح والخسارة إنهما قد نجحا في عملهما وأن أحداً لم يرتكب خيانة

(١) سورة القيامة: الآية ٢.

أو خطأ ما، شدّ أحدهما على يد الآخر بحرارة، وإذا ما حصل العكس فإن المقصر سيتعرض في هذه الحالة إلى سيل من العتاب والتقريع واللوم ومن ثم العقاب.

إن مثل هذه الحالة يعيشها الإنسان في أعماقه باعتباره مخلوقاً ينطوي على مجموعة غرائز وميول مختلفة، وفي ظلال ذلك الجو الثنائي، إذا صحّ التعبير ينشأ نوع من التعاهد والمراقبة، حيث تتم تسوية الحساب في نهاية كل عام بل وفي نهاية كل شهر أو كل اسبوع أو كل يوم، فإذا ما حصل خطأ في السلوك برز العتاب وبدأ التقريع واللوم.

ونوجز الموضوع بالتأكيد على ضرورة وجود المربين خارج الوجود الإنساني، ولكن ذلك لا يعد كافياً للتأثير في تربيته ما لم يوجد مربٍّ وواعظ من نفس الإنسان.

محاسبة النفس

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

تذكر الآية الكريمة وتؤكد على ضرورة مراقبة النفس، وأن العمل الإنساني بمثابة بضائع ومتاع يرسله الإنسان إلى مكان ما مثلاً ثم يلتحق به فيما بعد، كشخص يروم السفر فهو يرسل أمتعته إلى المكان المنشود ثم يلتحق بها بعد ذلك.

إن أقل تأمّل للإنسان سوف يقوده إلى معرفة أنه لا أمتعة للسعادة إلاّ بالعمل الصالح، وأنّه الرأسمال الوحيد الذي يضمن له سعادة الدنيا والآخرة، ولأن الإنسان لا يهتم بهذا الركن فإنّه لا يهتم بالعمل له أيضاً.

إذا كنّا نؤمن بالدار الآخرة فإن أول شيء يتوجب علينا أن نعرفه هو أن الآخرة عالم يقوم على العمل وأن منازلنا هناك إنما هي أعمالنا تتجسد على شكل ورد وشجر وقصر يتألف من سقف وأبواب ونوافذ وحدائق غنّاء تجري من تحتها الأنهار.

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٨.

وإذا كان إيماننا بالآخرة، لا سمح الله، ضعيفاً لا يغيّر ذلك من الأمر شيئاً وهو أن سعادتنا رهينة بأعمالنا وأن أمتعتنا الأساسية سعادة كانت أم شقاء إنما تتألف من أعمالنا وأفكارنا وأخلاقنا ونوايانا.

وكان علماء الأخلاق والمربّون يأمرون بمحاسبة النفس واستجوابها على القول والفعل أو عدمهما، تماماً كما يفعل المحققون والمفتّشون لدى استجوابهم العاملين، فإذا كان الجواب طيّباً والعمل حسناً نال العامل مكافأة على ذلك وإلا فنصيبه التوبيخ أو الغرامة أو السجن.

قد يتصور البعض بأن محاسبة النفس هي من شأن اولئك الذين يمارسون الرياضة الروحية أو السالكين ولا معنى لها لدى الناس العاديّين. وهذا النوع من التفكير خاطئ، ذلك أن القرآن يدعو إلى محاسبة النفس ولم يحصر دعوته بفئةٍ معيّنة من الناس. إنه يخاطب الذين آمنوا كافّة. وكما أشارت الآية الكريمة التي تصدّرت الحديث؛ فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر عليه أن يحاسب نفسه وقد قال الإمام علي عليه السلام: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا» وهل الحساب في عالم الآخرة ينحصر بأهل الرياضة الروحية وأرباب السلوك؟ كلاّ إنّ الحساب يشمل الجميع، وإذن فكل من يحمل ولو ذرة صغيرة من الإيمان بالله واليوم الآخر والعدالة والجزاء وأنّ للأعمال دور في تحديد مصير الإنسان في ذلك اليوم يتوجّب عليه أن يحاسب نفسه ويراقبها.

يقول أحد علماء الأخلاق: إن العظماء من السلف الصالح كانوا يعتقدون بإنّ من لا يحاسب نفسه هو إما ملحد باليوم الآخر والمعاد أو أنه مجنون وإلاّ فكيف لمن يحمل في رأسه عقلاً سليماً وهو يؤمن بالقرآن كتاباً من عند الله ينادي: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه»، ثم لا يحاسب نفسه ويراقب ما يرسله من الأعمال إلى ذلك العالم حيث يلتقيها هناك.

ولو تأمّلنا هذا الواجب الشرعي والديني لأدركنا بأنّ محاسبة النفس لا تخصّ فئة أو طبقة من الناس، ولو تأمّلنا ذلك من وجهة نظر عقلية لأدركنا أيضاً بأنّ محاسبة النفس أمر يشمل الجميع، فالطالب يراجع نفسه ويمتحنها ليعرف مدى فهمه للدروس قبل أن يبدأ فصل الامتحانات، وكذلك السياسي يراجع قراراته وبرامجه وخططه ويحاول اكتشاف نقاط الضعف قبل أن تُكتشف من قِبَل الآخرين.

إن من أسمى مظاهر العقل هو البحث عن الخطأ في أعماق النفس، أي أنّ الإنسان يغوص في أعماقه الزاخرة بالأفكار والرغبات والميول والعواطف والأفعال والأقوال واكتشاف مواطن الخطأ ومن ثم اجتنابها.

من غير المنتظر أن لا يخطئ الإنسان، إذ من الطبيعي أن يخطئ، فكلّ ابن آدم خطّاء، ولكن المنتظر من الإنسان الاستفادة من هذا الخطأ وعدم تكراره.

ليس الفرق بين المؤمن وغير المؤمن في أن الأول لا يخطئ في حين يخطئ الآخر. الفرق يكمن في أن المؤمن يستفيد من أخطائه فلا يكررها في حين إن غير المؤمن يصدم بأخطائه مراراً وتكراراً دون أن يلتفت إلى ضرورة تجنبها في المستقبل.

نسأل الله أن يوفقنا إلى اجتناب مزالق الخطأ.

ظلم النفس

يحفل القرآن الكريم بالآيات التي تتحدث عن ظلم النفس كقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

والسؤال هنا كيف يظلم الإنسان نفسه؟ ذلك أن الظلم نوع من الإساءة فكيف إذن يسيء الإنسان إلى نفسه؟ والجواب: إن علّة الظلم تنجم عن أمرين هما الغفلة والجهل.

صحيح أن الظلم إساءة وأن الإنسان لا يريد الإساءة لنفسه ولكن هذا الأمر يتحقق إذا كان الإنسان قد شخّص المسألة وأنه فعل ذلك عمداً مع معرفته، ولو كان الأمر كذلك لما ظلم نفسه أبداً. غير أنّ الظلم يأتي أحياناً مع تصوره بأنه يحسن إلى نفسه فإذا به يلحق الظلم بها دون أن يدرك ذلك.

فكم من ظالم نفسه مسيء إليها وهو يتصور أنه قدم لنفسه الخير، ولكن وبسبب جهله وعدم إدراكه تنقلب الأمور وإذا الخير الذي نواه هو في الحقيقة شر وظلم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٠.

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

كتب رجل إلى أحد الصحابة يطلب منه موعظة، فكتب الصحابي في جواب رسالته: (لا تسئ إلى أحب الخلق إليك)؛ ولم يفهم الرجل القصد من وراء هذه الموعظة إذ كيف يسيء إلى أحب الأشياء إليه؟ فكتب إليه الصحابي: نعم نفسك التي بين جنبيك تسيء إليها وتظلمها لا عن عمد ولكن عن غفلة وجهالة).

إن كل الذنوب والآثام التي يرتكبها البشر هي في الحقيقة محاولات خاطئه لإيصال الخير إلى النفس في حين أن المسألة على العكس، فهذه المحاولات الخاطئة مواقف عدائية تلحق الضرر بنفس الانسان؛ وإذن فعلة الظلم إنما تنشأ عن الجهالة والغفلة. وهناك سبب آخر مهم أيضاً، فقد يرتكب الإنسان إحياناً ظلماً ويسيء إلى نفسه عمداً عن علم وإدراك، وهذا أمر يدعو إلى التعجّب. ومن أجل فهم هذه الظاهرة نمهد لذلك بمقدّمة موجزة.

يقول الفلاسفة أن علل هذا العالم تنقسم إلى قسمين، الأول: علّة فاعلة والآخر منفعلة، والعلة الفاعلة هي المؤثرة والمنفعلة هي المتأثرة.

فالرسّام الذي يرسم لوحة ما هو علّة مؤثّرة واللوحة علّة متأثّرة. فمن الرسام الذوق والفكر والفن والمهارة، ومن صفحة اللوحة القابلية على تقبّل ذلك، ولولا وجود هاتين العلّتين ما ظهرت اللوحة إلى الوجود.

وهناك قاعدة اخرى تقول: إنّ العلّة الفعالة المؤثرة مستقلّة دائماً عن العلّة المتأثّرة، وإنه لا يوجد شيء يمكن أن يكون فاعلاً ومنفعلاً في نفس الوقت.

قد يعترض البعض على هذ القاعدة قائلين: كيف لا يمكن ذلك ونحن نشاهد الطبيب يمرض فيقوم بعلاج نفسه ومداواتها، والجواب: أن هناك التباساً وفهماً خاطئاً في هذه المسألة، عندما يتصوّر المرء أن الطبيب هذا يقوم بدور الفاعل والمنفعل، ذلك أن الطبيب إنسان والإنسان يضم جوانب مختلفة، فهو من جهة جسم يتعرض للمرض،

وفكر وعلم وطبابة يعالج بها بدنه من جهة اخرى، وإذن فالفاعل والمؤثّر هنا غير المنفعل والمتأثّر.

والسؤال الذي يثار هنا هو كيف يظلم الإنسان نفسه فيصبح ظالماً ومظلوماً أيضاً؟!.

إن الحالة هنا تشبه إلى حد ما حالة الطبيب، ذلك أن الإنسان يتألف من عقل وشهوة، فشهوته هنا تظلم عقله وتسحق إرادته وتضرب حقّه عرض الجدار، وإذن فإن إطاعة الشهوة والإنقياد لها ظلم للعقل والضمير والوجدان.

فمثلاً يكذب البائع فيزيد في قيمة بضاعته ويخدع المشتري فيكسب من وراء كذبه منفعة مالية يشتري بها ثوباً أو رغيفاً من الخبز، ولكنه في نفس الوقت يكون قد وجّه صفعة إلى وجدانه وضميره، ذلك أنهما لا يسوّغان الكذب وخداع الآخرين.

إن الكاذب يوجّه ضربة قوية للضمير ويضعفه، وإذن فهو يظلم نفسه، كذلك الظالم فالذي يظلم الآخرين يظلم نفسه أيضاً، ذلك أن قلبه يقسو وتغزوه الظلمة ويملؤه التصدّع. ولذا فإن القرآن ينعتهم دائماً بأنهم «ظالمون لأنفسهم»، فهم إما يظلمون أنفسهم عن جهل وغفلة أو عن طغيان يسحق إرادة العقل ويدمّر إنسانية الإنسان.

التوبة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر خطبة له يعظ الناس: «إذا تاب الإنسان قبل عام قَبِلَ الله توبته، ثم قال: هذا كثير إن الله يقبل التوبة بأقل من عام، إذا تاب الإنسان قبل شهر قبل الله توبته، ثم قال: هذا كثير وإن الله يقبل بأقل من شهر، إن الله يقبل التوبة قبل يوم، ثم قال: يوم كثير إن الله ليقبل التوبة بأقل من ساعة، إن الله ليقبل التوبة قبل لحظة من موته»[1].

التوبة هي الرجوع والعودة إلى الله، ومن غير الممكن أن يعود الإنسان إلى جادة الحق بعد أن يترك طرق الضلال وأن لا يقبل الله توبته وعودته وقبوله في رحمته الواسعة.

إن الركن الاساس في التوبة هو الندم على المعصية والتصميم على ترك الآثام، وهذا ينقسم بدوره إلى نوعين، فهناك نوع كاذب على الندم والتصميم على ترك الاثم، وذلك عندما يندم الإنسان على ذنبه لدى رؤيته الجزاء والعقاب فيتمنى حينها أنه لم يرتكب من ذلك شيئاً.

---

(١) لم أعثر على نص الحديث - المترجم.

إن مثل هذا الإنسان لو كان قد رأى الجزاء أمام عينيه حاضراً لما أقدم على ارتكابه المعصية، ذلك أن رؤية الجزاء أو العقاب المترتب على الذنب سيمنع الإنسان قهراً عن ارتكاب المعاصي، وهنا يفقد الإنسان قدرة الاختيار وعنصر الإرادة.

إن ترك الذنب لا يعتبر توبة إلا إذا رأى الإنسان ارتكابه الذنب حاضراً ومبلغاً يستلمه نقداً في حين يعتبر الجزاء دَيناً يترتب دفعه في المستقبل؛ وفي هذه الحالة يعتبر إقلاعه عن الذنب - سواء كان ذلك خوفاً من الجزاء في المستقبل أو طمعاً في الثواب في الآخرة أو استقباحاً للذنب نفسه - إرادة وتصميماً وتوبةً.

إن التوبة الحقيقية هي الإرادة الحازمة على ترك المعاصي والذنوب، والعودة الحقيقية إلى طريق الصلاح والرشاد.

ومن الطبيعي أن الله سيقبل توبة عبده وهو يرى عودته إليه بوازع من نفسه دون إجبار من خلال مشاهدة العقاب والجزاء، إن الله ولا شك سيقبل توبته ودخوله إلى رحمته التي تسع كل شيء.

إن الله لا يقبل التوبة في موطنين، الأول: التوبة لدى رؤية العذاب في الدنيا حاضراً، حيث تحصل حالة من التوبة الظاهرية دون أن يكون لها أساس حقيقي في أعماق الإنسان. قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[١].

كما ورد هذا الرفض في إيمان فرعون قبل أن تبتلعه أمواج البحر، لقد كان يطارد موسى وقومه بعد أن شرّدهم عن ديارهم، وعندما انفتح البحر لموسى لم يتدبّر فرعون هذه المعجزة ويؤمن بالله ومنّته نفسه المنحرفة بمواصلة الملاحقة لموسى وقومه، ولكن

(١) سورة غافر: الآية ٨٤-٨٥.

عندما هاجمته الامواج من كل مكان إذا به ينادي: آمنت بالذي آمن به بنو إسرائيل، فجاءه الجواب: الآن! وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين!.

أمّا الموطن الآخر الذي ترفض فيه التوبة فهو عندما يوقن الإنسان بأنّه سوف يودّع الدنيا وأطلّ على عالم الآخرة، وفي مثل هذه الحالة التي يفقد فيها الإنسان الإرادة والتصميم على العمل والحركة والتكامل فلا معنى لتوبته الخالية من أي أثر في النفس.

إن الإنسان في الدنيا كالفاكهة في الأشجار، فما دامت الثمرة مرتبطة بالغصن فهي تتغذى عن طريق الجذور وتستفيد من الضوء والحرارة والهواء، فإذا نضجت تماماً أو اقتطفت انقطعت علاقتها بالشجرة، وفي هذ الحالة يتوقف تكاملها ورقيها ونموها وصراعها مع الآفات، فإذا انفصلت عن الشجرة وهي فجّة أو كانت غير ناضجة فلن يفيدها شيء أو ينفعها أمر، وإن أصابها الذبول فلا فائدة من سقيها الماء أو تعريضها للضوء والحرارة والهواء.

كذلك الإنسان في عالم الطبيعة، فتكامله المنشود ينبغي أن يحصل ما دام مرتبطاً بشجرة الطبيعة، فإذا انفصل عنها من خلال الموت فلا فائدة بغير ذلك حيث انغلقت في وجهه طريق الصلاح.

وبالطبع هناك استثناء يتوجب الإشارة إليه وهو أن موت الإنسان لا يعني توقف تكامله تماماً، إذ توجد موارد يستمر فيها الإنسان في انتهاله من الرحمة الإلهية، وهي ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه الشريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: «صدقة جارية» كأن تكون مستشفى ينتفع منه عباد الله أو مدرسة أو مسجداً، «وعلم يُنتفع به» كالكتاب «وولد صالح يدعو له» بعد وفاته ويستغفر له.

الاستغناء يحفظ الكرامة الإنسانية

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أحسن إلى من شئت تكن أميره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره»[1].

إن هذه الكلمات المضيئة تفلسف شرف وحرية وكرامة الإنسان، ذلك أعظم ما يتجلى في الإنسان، هو العزّة والكرامة. ولا يوجد في الحياة قيد أو سجن أكثر مهانة من الإحساس بالأسر والقهر والعبودية لآخرين، حيث تكون إرادة الآخرين أقوى من إرادته، وأن يحتل تفكير الآخرين تفكيره وأن يتخلى عن دوره ليقوم بتنفيذ أدوار الآخرين والخضوع لرغباتهم وأمانيهم بكل ذلّة؛ وهذا أمر يرفضه الأحرار الذين يرجّحون الموت على أن يعيشوا أذلاء في هذه الحياة. يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «لا تكن عبداً لغيرك وقد جعلك الله حرّاً»[2].

في حرب صفين وعندما التقى جيشا علي عليه السلام ومعاوية قرب الفرات، بادر جيش معاوية إلى الاستيلاء على النهر وحرمان جيش الإمام من الماء وقد استبشر معاوية

(١) غرر الحكم طبعة جامعة طهران ص ٥٨٤.
(٢) نهج البلاغة/رسالة رقم ٣١.

بذلك واعتبره فتحاً، وعندما وصل الخبر إلى عليعليه السلام بعث له برسالة جاء فيها: (إنّا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، ونحن من رأينا الكفّ حتى ندعوك ونحتج إليك، وهذه اخرى قد فعلتموها، منعتم الناس عن الماء، والناس غير منتهين، فابعث إلى أصحابك فليخلّوا بين الناس وبين الماء وليكفّوا لننظر فيما بيننا وبينك وما قدمنا له فإن أردت أن نترك ما جئتنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

ولكن معاوية الذي رأى في عمله هذا فتحاً عسكرياً تملّكه الغرور فلم يرعوِ ولم يتراجع عن غيّه ضارباً عرض الحائط كل الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية؛ وهنا توجّه الإمام نحو جيشه واستنهض في أعماق جنوده قيم الحرّية والعزّة والشرف بعبارات تلتهب حماساً قائلاً لهم: (قد استطعموكم القتال فأقرّوا على مذلة وتأخير محلّة أو روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين، الا وإن معاوية قاد لمّة من الغواة وعمس عليهم الخبر حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة)[1].

واندفعت قوات الإمام نحو الفرات وما هي إلا لحظات حتى أصبح الماء في قبضتهم، وطلب البعض معاملة معاوية وأصحابه بالمثل وحرمانهم من الماء، ولكن الإمام رفض هذا المنطق قائلاً: (خذوا حاجتكم من الماء وخلّوا عنهم فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم).

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة رقم ٥١.

لقد فعل الإمام ذلك انطلاقاً من منطقه الإنساني الذي استفتحنا به الحديث وهو: «أحسن إلى من شئت تكن أميره واستغن عمّن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره».

إن الحاجة إلى ما في أيدي الناس يعرض الكرامة الإنسانية إلى الخطر في حين تصون القناعة شخصية الإنسان من الذل وتحفظ لها عزّتها وشرفها.

وقد قال الإمام عليه السلام في مناسبة اخرى: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

وقال عليه السلام في شعر ينسب له:

لا تطلبنّ معيشة بمذلّة   وارفع بنفسك عن دنيّ المطلبِ
وإذا افتقرت فداو فقرك بالغنى   عن كل ذي نَفسٍ كجلد الأجرب

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ملعون من ألقى كلّه على الناس»[١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في حديث آخر: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[٢].

(١) و (٢) الكافي ج٥/ ص٧٢ و ص٨٨.

حقيقة الزهد

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله وحبيبه وصفيّه محمد وآله الطاهرين.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[1].

دار الحديث في الليلة الماضية[2] حول موضوع الدنيا ورأي الدين في هذه المسألة، وتناولنا معنى الزهد والإعراض عن الدنيا وهل أن المراد من الإعراض عن الدنيا هوالأنصراف عنها تماماً؟ أو أن المراد من الزهد هو انتهاج طريق في الحياة يقدّم الفضيلة والأخلاق على المطامع المادّية؟

وفي هذه الليلة سنحاول توضيح المسألة وبحث الموضوع بدقّة أكثر.

إن المراد من ذم الدنيا ليس الدنيا نفسها بل هو حب الدنيا، ذلك أن الخطر لا يكمن في الدنيا ذاتها بل في التعلّق بها.

فالثروة والمال والجاه والمرأة والأولاد ليست أموراً مذمومة بل إن التعلّق بها هو المذموم، ذلك أن الدنيا هي ما خلق الله سبحانه من شمس وقمر وأرض ونجوم وجماد

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

(٢) اشارة إلى موضوع مثبت في كتاب (عشرون مقالة).

ونبات وحيوان وإن الدنيا عبارة عن المرأة والولد والمال والثروة، وكل هذه موجودات خلقها الله وأبدعها وأقسم بها فلا يمكن أبداً أن تكون مذمومة. إن الذم ينحصر في التعلّق بهذه الامور، وينطوي هنا معنى الزهد في الدنيا.

قد يرد إشكال في هذا العرض وتساؤل عن الفرق بين أن نقول بأنّ الدنيا مذمومة ينبغي تركها وبين أن نقول بأن حب الدنيا هو المذموم. فلماذا يكون حب الدنيا مذموماً وهو أمر غرسه الله في نفس الإنسان، ولماذا لا يكون هذا الجانب مقدّساً كسائر مخلوقات الله؟ إذ لولا هذا الميل للدنيا الذي أودعه الله في نفس الإنسان بل وفي نفس كل كائن حي لما استمرت الحياة على وجه الأرض ولما دافع الإنسان عن نفسه ضد الأخطار التي تواجهه ولما وجدت تلك الرغبة في نفوس الحيوانات في الاستمرار في العيش والدفاع عن الحياة ولما ترعرع الحب في قلب الرجل للمرأة والأولاد. فمن أجل استمرار الأجيال وبقاء النوع الإنساني أودع الله في نفس هذا المخلوق رغبات وميولاً شتّى، فمن حبّه إلى العزّة والقدرة إلى الميل في كسب العلوم والتمتّع بالجمال وغير ذلك من الميول.

إذا كنا لا نستطيع أن نذمّ العالم وما فيه من موجودات ومخلوقات فإنّنا في هذه الحالة لا يمكننا أن نذم التعلّق والرغبة بها لأنها جزء من الخلق شأنها شأن سائر أعضاء الإنسان، ذلك أن كل ماهو موجود في الإنسان إنما يستند إلى حكمة في خلقه حتى الشعرة الواحدة والعرق المتناهي في الصغر. لا يوجد شيء زائد أو عبث في الخلق؛ كذلك الجانب الروحي في الإنسان فالرغبات والميول هي الاخرى ليست موجودة عبثاً أو دون حكمة؛ وإذن فإن ترك حب الدنيا ينطوي على نفس الإشكال الذي يثار في مسألة ترك الدنيا ذاتها.

والجواب على هذا الإشكال هو أن المقصود من حب الدنيا ليس ذلك الميل الفطري الذي تنطوي فيه حكمة الخلق كما تعبّر عنه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

وهذا نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أحببت من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة».

وإذن فإن المراد من ترك الدنيا ليس الميول الفطرية التي أودها الله في الذات الإنسانية. ولو وجد إنسان يفتقر إلى جميع العواطف والمشاعر والميول، ليس له أصدقاء يهفو إليهم وينظر إلى أولاده كما لو كانوا غرباء أو ينظر إليهم كما لو كانوا حجارة أو أعمدة من خشب. حتى لو افترضنا بأنه يحبّهم لأنهم خلق من مخلوقات الله فلا شكّ أن مثل هذا الإنسان ناقص.

إذا كان ابراهيم الذي أراد ذبح ولده اسماعيل ينظر إليه كما لو كان كبشاً لما كانت التضحية هذه قيّمة في طريق الكمال؛ كذلك لو كان الإمام الحسين سيد الشهداء الذي قدم اخوته وأصحابه وأهل بيته ضحايا في سبيل الله لا يكترث بهم لما كانت لتضحيته هذه، هذا الشأن.

فالمراد إذن أمر آخر. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

اشتملت هذه الآية الكريمة على جملة أمور هي: المرأة، الأولاد، الأموال من ذهب وفضّة، الخيل المزيّنة، الأنعام والمزارع، والخ من متاع الحياة الدنيا؛ وجوّ الآية يوحي

(١) سورة الروم: الآية ٢٠.
(١) سورة آل عمران: الآية ١٤.

بالانتقاد، فما هو الشيء الذي تذمّه الآية؟ نفس تلك الامور التي استعرضتها وأشارت إليها؟ هل تنتقد نفس المرأة والأولاد والثروة، وغيرها؟ كلا! هل تنتقد الميل الفطري لها؟ كلا أيضاً! إذاً ماذا تنتقد الآية؟ إنها تنتقد الاستغراق في هذا المتاع والغفلة عمّا وراء ذلك. إنها تذمّ الإنسياق وراء الملذّات دون رؤية وتدبّر فيما وراء هذه الحياة ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾(١).

لقد تحدّث القرآن الكريم عن إنسان بلغ من عبادته لله شأناً عظيماً ثم انحرف عن الطريق من أجل بعض المنافع المادّية، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾(٢).

وكان بإمكانه أن ينال بها سعادة الدارين ولكنه اتبع خطوات الشيطان ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(٣) لقد كان بإمكانه أن يرتفع ولكنه التصق بالأرض واتبع هواه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤).

نفهم من مجموع هذه الآيات أن ما يذمّه الدين ويرفضه هو الانقطاع إلى الدنيا والغفلة عن الله والآخرة؛ الإخلاد إلى الأرض والالتصاق بها والاكتفاء بالحياة الدنيا، وعندما يقال بأن الدنيا مذمومة فالمراد هو التعلّق بها والتوقّف عندها وعدم النظر والتدبّر بما بعدها.

---

(١) سورة النجم: الآية ٣٠.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.
(٤) سورة يونس: الآية ٧-٨.

قال الإمام علي عليه السلام: «وإنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى»[١].

الجانب الذي يذمّه الدين هو العمى؛ عدم امتداد النظر إلى ما وراء حجب الطبيعة؛ انحصار الفكر بالمادّة. يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ﴾[٢].

إن حب الدنيا وحب النساء والأولاد والاموال والجاه مسألة فطرية أودعها الله في ذات الإنسان من أجل استمرار الحياة، ولو سلبت منه لنسفت حياته في الدنيا وحياته في الآخرة.

إن حركة الحياة والتكامل تتوقف على تلك الميول الفطرية، ولكن الانقطاع إليها والاكتفاء بها سيوقف الإنسان في حدود حيوانيته وسيمنعه من السير في طريق التكامل.

إذن فمن هو التارك للدنيا الزاهد فيها؟ إنه الإنسان الذي سخّر الدنيا من أجل الوصول إلى هدفه السامي في الآخرة.

إن الانقطاع إلى الدنيا لا يؤدي إلى توقف حياة الإنسان بل إلى تدميرها فهل تظنون أن الحرص يتمكن من إدارة الدنيا؟ أو أن الطمع قادر على تسيير الحياة؟ أو أن الغضب والشهوة يمكنها من منح العالم قدراً من النظام؟ وهل أن عبادة البطن أو المرأة أو المال أو الجاه أو كل ما يعبّر عن الاكتفاء بالدنيا والاستغراق فيها قادر على منح السعادة للإنسان؟ إن الإنسان لا يمكنه أن يدير الدنيا أو يصنع مدينته الفاضلة، ويحيي حراً إلا إذا سخرّ الدنيا لإرداته ولم يصبح أسيراً لها تتقاذفه أمواجها المتلاطمة.

إن جميع الرذائل كالكذب والرياء والتملق والظلم إنما تنشأ من عبادة الدنيا، وفي مقابل ذلك فإن جميع الفضائل إنما تنتج عن الزهد في الدنيا وعدم الاكتفاء بها.

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ١٣١.
(٢) سورة النجم: الآية ٢٩-٣٠.

إن الإنسان لا يمكنه أن يصبح شجاعاً إذا كان غارقاً في حب الدنيا وعبادتها كما لا يمكنه أن يكون عفيفاً أو أن يعيش حياته حرّاً كريماً.

إن الزاهد هو من تتوفر فيه هذه الخصال لا الإنسان المنزوي الذي يعيش على هامش الحياة ضعيفاً سلبياً متطفّلاً خاضعاً لعبيد الدنيا.

الزاهد هو من يسمو على أولئك العبيد بفكره لا يخشى فراق الحياة وتقلباتها، شجاع جريء حرّ عفيف كريم وتملأ نفسه روح التضحية والفداء.

إن أول خصلة في أولئك الذين يضحون بأنفسهم هي الزهد في الدنيا بكل ما للزهد من معاني، فهذا علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو خلاصة جميع الفضائل الإنسانية من عدالة وتقوى وشجاعة وحرّية وسخاء وكرم ووفاء ومروءة، لقد حاز جميع هذه الصفات لأنه رأى نفسه أسمى وأشرف من الدنيا وما فيها؛ قال في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «وأكرم نفسك عن كل دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً، وما خير خير لا ينال إلا بشرّ»[1]. وقال عليه السلام: «الدنيا دار ممرّ لا دار مقرّ، والناس فيها رجلان، رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها»[2].

وهناك فريق يعيش ثم يغادر الدنيا وفي رقبته آلاف القيود وهناك فريق آخر يغادر الدنيا حرّاً لا يعرف للعبودية معنى، إلا عبودية الله سبحانه، لا يعبد الشهوة والمال ولا ينقاد للغضب ولا يخضع للجاه ولا يستسلم للثراء بل يحيي حرّاً كريم النفس، وهذا هو المعنى الحقيقي للزهد.

---

(١) نهج البلاغة/ رسالة رقم ٣١.
(٢) نهج البلاغة/ حكمة رقم ١٣٣.

البساطة واجتناب التكلّف

جاء في الحديث الشريف: «شرُّ الإخوان من تُكُلِّفَ له».

يُجمع المؤرّخون على أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان بسيطاً في حياته بعيداً عن التكلّف، بسيطاً في ملبسه لكنه نظيف الثوب يفوح عطراً وطيباً؛ لقد كانت البساطة تشكل ركناً أساسياً في حياته صلى الله عليه وآله وسلم.

لا شك أن للحياة حدوداً وأصولاً ينبغي رعايتها وإلاّ تحولت الحياة إلى غابة، ولذا نجد القرآن يشير صراحة إلى هذا المعنى في كثير من آياته، أي إلى وجود حدود الهية يتوجب على الإنسان عدم تجاوزها.

فالعظماء من البشر هم اولئك الذين تحكم حياتهم بعض الأصول والاسس المحترمة لديهم، وفرق كبير بين تلك الاصول ولين القيود والعادات الفارغة والامور المتكلّفة التي تظهر بين الناس والتي تجعل حياتهم صعبة لا تطاق.

فالاصول التي ينبغي رعايتها تساعد على الاستقرار والطمأنينة في الحياة ولكن القيود والتكلّف تزيد من أعباء الحياة وتؤدي إلى الشقاء.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسيطاً في ملبسه ولكنه كان يراعي اصول النظافة. كان صلى الله عليه وآله وسلم يرتّب هندامه ويرجّل شعره في كل صباح وكان ينظر في المرآة قبل أن يخرج من منزله، وكانت النظافة في حياته أصلاً من الاصول ولم تكن قيداً أو تكلّفاً، ولكن

هناك من يفرّط في النظافة وهناك من يفرط فيها، هناك فريق من الناس لا تحدّهم حدود وتقيّدهم قيود، يعيشون حياة اللامبالاة ضاربين عرض الجدار كل الحدود وشعارهم في الحياة البطالة والكسل.

وهناك في المقابل فريق من الناس قد ربطوا أنفهسم بعادات وقيّدوها بتقاليد وإذا هم يعيشون في قفص رهيب، فهناك ألف قيد وقيد في طريقة تناول الطعام وألف قيد وقيد في ارتداء الثياب وآلاف القيود في المعاشرة واستقبال الضيوف وإقامة الأعراس والسفر حتى لتتحول حياتهم إلى مجرد أعباء لا تطاق، فهم يتحركون كالدمى ويتحولون إلى موجودات ورقية أو زجاجية تتحرك وفق آلاف القيود المصنوعة؛ حديثهم تكلّف، طريقة مشيهم متصنّعة، يتصنّعون في ارتداء ثيابهم، يتكلفون في استقبال ضيوفهم، ينهضون بتكلّف ويجلسون بتكلّف، وبعبارة واحدة إنّ حياتهم تكلّف في تكلّف وتصنّع في تصنّع.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجلس مع أصحابه كأحدهم ولم يكن في مجلسه صدر أو ذيل، فوق أو تحت.

قال سبحانه في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1].

إن التكلّف والتقيّد إنما ينجم عن حقارة في النفس وانعدام في الشخصية فالبعض من الناس يعانون من إحساس بالحقارة يدفعهم إلى إثبات وجودهم بهذا السلوك. إن مثل هؤلاء الأفراد يحاولون توجيه الأنظار إليهم عن طريق هذه التصرفات.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

إن من يتمتع بمقام علمي فإن شخصيته العلمية هـذه لا تـرى ضـرورة للتظـاهر، وعلى العكس فإن من يعاني من إحساس بالتخلف يحاول عن طريق الألقاب والعناوين التظاهر بالأهمية وعلى العموم فإن العمـل والنـشاط والإيجابيـة تتنـاقض مـع التـصنّع والتكلّف والغرور والخضوع للعادات الفارغة.

إن التكلف والتصنع يهدر الكثير من الوقـت ويـستهلك الفكـر والخيـال ويجلـب الضجر والملل.

إن المجتمع الذي يسعى الى أن يكون فعـالاً نـشطاً متفوقـاً ينبغـي عليـه أوّلاً أن يتخفف من أعباء التكلف لكي يتحرك نحو الأمام.

ذهب الإمام الصادق عليه السلام ذات يوم إلى الحمام فأراد صاحب الحمّام أن يخليه لـه، فنهاه الإمام عن ذلك قائلاً: «المؤمن أخف مؤونه من ذلك».

يروي سعدي الشيرازي هذه الحكاية:

رأيت ابن غني جالساً حول قبر أبيه وقد استرسل بالمناظرة مع ابن فقـير يباهيـه قائلاً: صندوق تربة أبي حجري محكم مكتوب عليه بالنقش الملون كأزهار النيروز وهو مفروش بالرخام مرصّع بالفيروز فمـاذا بقـي مـن الفخـر لأبيـك المـبني قـبره بلبنـتين المرشوش من التراب بقبضة أو قبضتين؟!.

سمع الفقير هذا الفخر فقال: اسكت أيها الغبي فإنه بينما يتحرك ابوك من تحت ثقل الأحجار يكون أبي قد وصل الجنّة ونجا من النار[1].

وقال الشاعر:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلاّ من هذه الأجسادِ

---

(١) روضة الورد – حكاية ١٨ – سعدي الشيرازي.

الحقّ والواجب

قال تعالى في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1].

تبين هذه الآية الكريمة بأسلوب رائع مدى الاستعداد الاستثنائي للإنسان، إذ أشفقت السماء والأرض والجبال من حمل الأمانة الاهية وتراجعت في حين تقدم الإنسان إلى حملها.

ولم تكن الأمانة التي تراجع الجميع عن حملها وانبرى الإنسان إليها إلاّ التكليف والمسؤولية.

إن كل موجود يتحرك نحو الكمال إنما يفعل ذلك دون إرادة منه أو اختيار، إنه يطوي طريقه ذلك دون أن يتمكن من تغيير مساره أو هدفه، ولكن الإنسان الذي يرقى في طرق الكمال إنما يفعل ذلك انطلاقاً من التكليف والمسؤولية، ولذا فإن من دواعي الفخر لهذا المخلوق أن ينهض بالواجب بإرادته.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

الكثير من الناس يرغبون في التحلل من الحقوق والواجبات باسم الحرية، ومن الطبيعي أن يفعل الإنسان ذلك، بل من الواجب أن يعيش إلانسان حرّاً في حياته بشرط أن يفعل ذلك في الحدود التي تحفظ له إنسانيته.

إن الإنسان حر من كل القيود ومن كل شيء إلا قيد الإنسانية، أما أن يتحلل من كل القيود ومن كل الحقوق والواجبات ويعتبر نفسه حرّاً تجاه كل شيء، فعليه أوّلاً أن يتخلّى عن إنسانيته ويعتبر نفسه جماداً أو نباتاً أو حيواناً على أقل تقدير، ذلك أن شرط الإنسانية هو قبول المسؤولية تجاه الواجب والحق.

ولأننا بشر وباعتبارنا أرقى المخلوقات وأن لدينا حقوقاً وامتيازات في استثمار الأرض والبحار والغابات وما فيها من نبات وحيوان، فإن هناك واجبات مترتبة علينا أداؤها. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطاب له بعد قبول الخلافة: «اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»[1] فقطعة الأرض التي تملكها مثلاً لها حق عليك وهو أن لا تُترك بواراً أو خراباً، فإما أن تستثمرها بالزراعة أو تعمرها بالبناء، وبهذا تؤدي حقها، وكذلك ما تملكه من ماشية كالخيل والغنم والأبقار والإبل والحمير والبغال، فكما أنك تستفيد منها في التنقل أو تستثمرها لأداء بعض الأعمال أو تستفيد من لبنها وصوفها ووبرها، فإنك أيضاً مسؤول عن رعايتها وإطعامها وإيوائها.

كما أن من يتصدّى لولاية مدينة أو إقليم من الأقاليم ويكون أمره مطاعاً عليه أن يعلم بأن هناك مسؤولية ملقاة على عاتقه في توفير الأمن والاستقرار في حدود مدينته أو إقليمه أو بلاده.

(١) نهج البلاغة/ خطبة١٦٧.

فإن من يملك زهرة يستمتع بعطرها الفواح أو بمنظرها الجذاب عليه تقع مسؤولية سقيها والحفاظ على طراوتها.

وإذن فإن الإنسان بما يملكه من استعداد ولياقة فطرية تجعل له حقاً في استثمار ما سخّر له من مخلوقات الله، فإن عليه مسؤولية كبرى تجاه هذه المخلوقات ابتداءً من الجمادات والنباتات والحيوانات وحتى أفراد نوعه كمسؤوليته تجاه والديه أو ذرّيته أو زوجه أو قومه أو معلميه وجيرانه.

يوصي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد عماله قائلاً: «وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم واللطف بهم ولا تكونّن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[1].

إننا كثيراً ما نتحدّث أو نسمع عن «الحق» و«الحقيقة» ولذا ينبغي أن نعرف الحق وأن ندرك الحقيقة.

إن إدراك الحقيقة يتم بمعرفة نظام الوجود وأن نعرف مسار العالم كما هو لا كما نتصوره في الذهن من خيالات وأوهام بعيدة كل البعد عن عالم الحقيقة وأن نعرف أنفسنا كما نحن، وأن نعرف الله بصفات كماله وجماله وجلاله.

وأما معرفة الحق فهي بمعرفة الدين الذي بذمّتنا، أن نعرف حق أقرب شيءٍ إلينا وهي جوارحنا فنؤدّي حقّها، أن نعرف حقوق أبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وأولادنا ومعلّمينا وجيراننا، أن نعرف حق أقربائنا ومواطنينا، وحتى حق الأرض التي بحوزتنا أو المقام والمركز الاجتماعي الذي توفّر لدينا.

---

(١) نهج البلاغة/ كتاب ٥٣.

فإذا عرفنا أنفسنا وربنا والعالم الذين نعيش فيه، وإذا عرفنا ما علينا من حقــوق، عندها سنتمكن ـ ونحن مرفوعو الهامة ـ من الادعاء بأنّا أهل للحق وأهل للحقيقية.

خصائص الحق في نظر الإمام علي عليه السلام

من خصائص الحق لدى أمير المؤمنين عليه السلام أنه «لا يجري لأحد إلاّ جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له» أي أن الحقوق في المجتمع متبادلة بين الأفراد فهي لا تجري في صالح أحد دون الآخر.

فللآباء والامهات حقوق في أعناق أولادهم يجب رعايتها، وفي مقابل هذا هناك حقوق للأولاد في أعناق آبائهم وامهاتهم، بل إن حقوق الأولاد تبدأ قبل حقوق الآباء، ذلك أن الأطفال في بداية حياتهم هم مجرد مسؤولية تقع على عاتق الوالدين في حين لا يتحمل الأطفال أيّة مسؤولية تجاه آبائهم وأمهاتهم.

كذلك المعلم والتلميذ والاستاذ والطالب، ففي موازاة حق الاستاذ على التلميذ من الاحترام والأدب والمحبّة والطاعة، هناك حق للتلميذ على استاذه من حسن التعليم والتربية والاهتمام والدقّة وغير ذلك.

وينسحب الامر كذلك على الاسرة، فللرجل والمرأة حقوق متبادلة؛ فمن يظن أن له حقا في أعناق الآخرين يجب أن يعلم بأنه مدين لهم.

الله سبحانه وحده الغنيّ الكامل والمالك المطلق، وهو الاستثناء في هذه القاعدة. إن لله تعالى حقوقاً على مخلوقاته، وإن عبيده سبحانه مدينون له بالفضل والنعمة، وليس

لأحد حق على ذاته المقدّسة. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه»[(١)].

وقد جعل الله طاعته حقاً على الناس وجعل لها ثواباً من فضله ورحمته، واعتبر ذلك حقا عليه.

وهذه الطاعة لا تعود بالفائدة على الله، إن الله تعالى منزّه عن ذلك، إن فائدتها تعود إلى الناس أنفسهم فهم يطيعون الله سبحانه لأن مصلحتهم في ذلك، وبالإضافة إلى هذا فإن الله جعل لهم حقاً ازاء طاعتهم هو الثواب رحمة من عنده وفضلاً.

من جملة خصائص الحق لدى علي عليه السلام هو ما ذكره الإمام في قوله: «فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف»[(٢)].

الحق كلمة سهلة في النطق واسعة في الوصف رحبة في الكتابة والتأليف ولكنه صعب في التطبيق ضيق عند العبور.

ثم يذكر الإمام خصيصة اخرى وهي التكافؤ في الحقوق بين الناس، إذ ليس هناك من يقول أنا أجل شأناً من أن يساعدني أحد في عمل الحق، وليس هناك أحد مهما كان صغيراً في شأنه لا يكون له في عمل الحق نصيب، فللجميع حقوقهم «تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض».

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[(١)]؛ الجميع ـ عاليهم ودانيهم، عالمهم وجاهلهم، قويهم وضعيفهم، سيدهم وخادمهم ـ مطالبون بذلك، فإذا رأى أحدهم نفسه أسمى من ذلك في التعاون تعرض ذلك الرباط الاجتماعي للخطر. فالبناء الاجتماعي يبقى قائماً ما

---

(١) نهج البلاغة/خطبة٢١٦.
(٢) المصدر السابق.
(١) سورة المائدة: الآية ٢.

دامت تلك الحقوق المتبادلة محفوظة، وإلاّ فإن تراكم عدد الآجر بعضه فوق بعض دون ارتباط وثيق لا يصنع بناءً متيناً.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً».

أما الخصيصة الرابعة في الحق فهي أن لا يأنف من ذكره أهله، فالكاسب والموظف أو السائق وكل من يدعي السير في طرق الحق إذا ما ذُكر بالحق عليه أن لا يأنف من ذلك إذا كان صادقاً مع نفسه وأن لا ينزعج من كل إرشاد يُسدى إليه.

يقول الإمام علي عليه السلام: «لا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنّوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له او العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطئ.

حق الناس بعضهم على بعض

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله وحبيبه وصفيّه محمد وآله الطاهرين.

مجال بحثنا لهذه الليلة هو إحدى خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، والتي تبيّن حقوق الناس بعضهم على بعض، وقد ألقاها الإمام في صفّين وبدأها بهذه العبارة:

(أمّا بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقّاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي عليكم)[1].

الاولى، هي أن «الحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف» فالحق كلمة سهلة في النطق رحبة في الوصف، ولكنه مشكلة في التطبيق والعمل. الحق ميدان فسيح لمن يريد أن يتحدث عنه بياناً وخطابة ومقالة، ولكنه عند العمل أو التسليم له

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٢١٦.

الذي له. هناك تبادل في الحقوق بين الناس، وفي مقابل كل حق هناك واجب متعين، فللفرد على المجتمع حقوق وللمجتمع على الفرد حقوق.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ملعون من ألقى كلّه على الناس».

إن للوالد حق على ولده، وفي مقابل ذلك هناك حق للولد على والده، فللوالد الطاعة والاحترام، وللولد الكفالة والرعاية والتربية.

كذلك الزوج والزوجة، المعلم والتلميذ، الجيران فيما بينهم، الحاكم والرعية والمسافر ورفيقه في السفر.

وهذه الحقوق المتبادلة لا تنحصر بين الناس وحدهم بل تشمل دائرة أوسع فحيث يمتد شعاع استفادة الإنسان كحق يمتد معه شعاع الواجب.

يقول أمير المؤمنين في خطبة أوائل خلافته: «اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»[1].

إن دائرة الواجب تمتد وتتسع لتشمل العباد والبلاد والبهائم وبقاع الأرض، فكل شيء موجود هو للإنسان بشرط أن يستفيد منه الفائدة الصحيحة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[2].

فحق الأرض في زراعتها وعمارتها وأن لا تبقى خراباً أو بواراً، وحق الحيوان في رعايته والمحافظة عليه.

ثم يقول الإمام عليه السلام: «ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه» ذلك أن قانون الحقوق المتبادلة أو الحق والواجب إنما يصدق على

(١) نهج البلاغة/خطبة ١٧٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٠.

مخلوقات الله، أما الله سبحانه وتعالى فهو الغنيّ المطلق والفيض المطلق وهو الذي وضع قانون الخلق لكي يطوي مساره نحو الكمال المنشود.

إن الذات الالهية المقدسه منزهة عن ذلك، وكل ما أفاض الله به على عباده هو تفضل منه ورحمة وإحسان وجود، ولذا فإن نفحة الوجود في هذا العالم إنما هي دين للذات المقدسة، وبالتالي فهي مجرد مسؤولية في أعناق الخلق ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1].

ثم يقول عليه السلام مشيراً إلى الحقوق المتبادلة بين الحاكم والرعية: «وأعظم ما افترض ـ سبحانه ـ من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله ـ سبحانه ـ لكلٍّ على كلٍّ، فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلاّ باستقامة الرعية.

ثم يتحدث عن نفسه قائلاً: «فلا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست في نفسي بفوق أن أُخطئ ولا آمن من فعلي».

وقد استنتج من ذلك أحد المؤرخين المعاصرين في بحث حكومة الإمام علي قائلاً: إن حديث الإمام يدل دلالة واضحة على أن حل المشكلات لا يتطلب فقط خليفة عادلاً فطناً وإدارياً ناجحاً فحسب بل يتطلب أيضاً مجتمعاً متيقّظاً مدركاً لحقوقه وواجباته محبّاً للخير طالباً للعدالة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام نفسه في كتاب إلى أحد عمّاله:

«أمّا بعد، فإنّ حقاً على الوالي ألاّ يغيّره على رعيته فضل ناله ولا طول خصّ به. وأن يزيده ما قسم الله له من نعمة دنواً من عباده وعطفاً على إخوانه. ألا وإن لكم

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

عندي ألاّ أحتجز دونكم سرّاً إلاّ في حرب، وأطوي دونكم أمراً إلاّ في حكم، ولا أؤخّر لكم حقاً عن محله ولا أقف به دون منقطعة وأن تكونوا عندي في الحق سواء»[١].

وفي مناسبة اخرى يشير الإمام عليه السلام إلى هذا الموضوع قائلاً: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعاون على ما حمّله الله من حقه ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعاون عليه»[٢].

كلّ يحتاج الآخر مهما كان شأنه صغيراً أو كبيراً، يقول الله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٣].

إن أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام وخطبته لتزخر بالإشارة والتأكيد على الاتحاد والتعاون، ذلك أن البعض من الناس يرى نفسه فوق أن يتعاون مع الآخرين أو يعاونه الآخرون، غير آبهين بما للفرد كائناً من يكون دوره المؤثّر فكراً وعملاً، غافلين أو متغافلين على أن الإسلام يؤكد ويوصي بالمشورة، خاصّة في ميدان العمل الاجتماعي. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[١] ويخاطب القرآن الرسول الأكرم في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[٢]، فالبرغم من كونه رسولاً من قبل الله وأن الناس لا يتوقعون منه أن يطلب منهم رأياً أو مشورة أو مشاركة، ولكنه كان يفعل ذلك لكي يربي في المجتمع قوة الشخصية ويجعل له احتراماً وأهمية، لتبقى بعده سنّةً متّبعةً؛ وإن غزو الأحزاب وما أشار به سلمان الفارسي في حفر الخندق حول المدينة شاهد على ذلك.

---

(١) نهج البلاغة/ كتاب ٥٠.
(٢) نهج البلاغة/ خطبة ٢١٦.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢.
(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

ثم يتحدث الإمام عن جانب التعاون في إقامة الحق قائلاً: «من واجب حقوق الله على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ ـ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته ـ بفوق أن يعاون على ما حمّله الله من حقه، ولا امر ـ وإن صغّرته النفوس واقتحمته العيون ـ بدون أن يعين على ذلك أو يعاون عليه».

وعند هذا المقطع من خطابه ينهض أحد أصحابه ويثني عليه بحديث طويل ويذكر طاعته للإمام، بعدها يستأنف الإمام خطبته حول الموضوع، وسأكتفي بالإشارة إلى نقطة واحدة عن الحق أيضاً وهي مكملة لما بدأناه من بحث، حيث يعرب الإمامعليه السلام عن استعداده لسماع كل انتقاد أو اقتراح فيه صلاح بعيداً عن روح المجاملة أو التهيّب قائلاً:

«ولا تخالطوني بالمصانعة ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي فإنّه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل إن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه»[1].

وقد ذكر الإمام ذلك ردّاً على موقف ذلك الرجل الذي امتدحه وأثنى عليه: «وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست ـ بحمد الله ـ كذلك».

وعلى أساس هذه الروح في معاملة الرعية اعتبر البعض حكومة الإمام عليعليه السلام واحدة من أرقى أشكال الديمقراطية في الإدارة والحكم، ذلك أنّ الإمام وبالرغم من سلطته الزمنية والروحية كان يحثّ الناس على الانتقاد ويشجّعهم على الاعتراض. والاعتراض الذي يريده الإمام ذلك الذي ينطلق من أساس الحق بشرطيه، الأول: حسن النية أي أن لا يكون وراء الاعتراض مصلحة شخصية كطمع في مال، بل

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٢١٦.

الإصلاح. الثاني: حسن التشخيص، أي يكون الاعتراض مبنياً على أساس من الإدراك والتشخيص الصحيح، بعيداً عن الانتقادات الجاهلة المدمّرة.

فالاعتراض الذي ينطلق من حسن النية والتشخيص الصحيح سيكون له الأثر البالغ في الاصلاح، أما الانتقاد الذي يأتي على أساس سوء النوايا أو عدم إدراك مصلحة المجتمع العليا فإنه بمثابة وضع العصيّ في العجلات، وسيؤدي إلى الفوضى والقضاء على النظام.

وخلاصة البحث أربع نقاط أشار إليها الإمام عليه السلام أكرّر عرضها مرّة أُخرى:

الاولى: إن الحق سهل في النطق والحديث، صعب في التطبيق والتنفيذ، وإن ملاكه في العمل لا في القول.

الثانية: إن الله جعل الحقوق بين الناس متبادلة ومتكافئة فلا تجري لأحد دون الآخر ولا تجري على أحد دون غيره. وإن الله وحده الذي له دَين في عنق الناس دون أن يكون للناس حق على الله.

الثالثة: إن الحقوق لا تقام إلا بالتعاون والمساعدة، وأن لا يرى البعض نفسه فوق أن يعين أو يعان في ذلك.

الرابعة: إن علامة أهل الحق هي الإصغاء لكل انتقاد أو اعتراض إذا كان ذلك منطلقاً من حسن النية وقائماً على تشخيص صحيح، وإن المقياس الأول والأخير في معرفة أهل الحق هو استعدادهم لاستماع النصح.

كان هذا حديثاً حول بعض المقتطفات من كلام أمير المؤمنين عليه السلام إمام الحق والعدالة.

خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام قال قبل استشهاده: «وإنما كنت جاراً جاوركم بدني وستُعقبون من جثة خلاء ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق، ليعظكم هدوّي وخفوت أطراقي وسكون أطرافي فإنّه أوعظ المعتبرين من المنطق البليغ؛ غداً ترون أيّامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلوّ مكاني وقيام غير مقامي»[2].

كلمات مؤثرة قالها الإمام وهو على فراش الموت بعد اغتياله الآثم، فهذا البطل الشجاع الذي دوّخ الدنيا سيكون بعد ساعات جثّة هامدة لا حراك فيها، وهذا في حدّ ذاته عبرة بالغة لمن كان له قلب ثم يقول الإمام: «ستعرفونني بعد أن اغادر هذه الدنيا ويسوسكم آخر بعدي، وستنجلي لكم الحقائق التي انطوى عليها وجودي، وستنمو البذور التي زرعتها في قلب المصاعب والحوادث المريرة شيئاً فشيئاً وستثمر في النهاية».

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢-٣.

(٢) نهج البلاغة/ خطبة ١٤٩.

زخرت خلافة الإمام علي عليه السلام على قصرها بالفتن والقلاقل، فقد تسلّم عليه السلام زمام الخلافة في أزمة عنيفة عصفت بالامة الإسلامية، وكادت أن تجعل الكيان الإسلامي في خبر كان.

وانطلاقاً من الشعور بالمسؤولية الكبرى وبالرغم من كل المصاعب تصدّى الإمام للخلافة، وكان مصرع عثمان ذريعة تذرّع بها بعض الانتهازيين والنفعيين والباحثين حول اقتناص الفرص، مما عرّض العباد والبلاد الى فتنة كبرى.

وفي خضمّ الفتنة التي سبقت مصرع عثمان تبلور إجماع الأمّة الإسلامية على أن الخلافة لا تصلح إلا بعلي ولا يصلح أحد للخلافة إلا ابن أبي طالب، ولذا فقد طلب عثمان من الإمام مغادرة المدينة إلى ينبع فترة من الزمن ريثما تهدأ الامور وينسى الناس بغيابه المثال المنشود، وقد وافق الإمام على ذلك وتوجّه إلى ينبع.

وبعد مدّة من الزمن بعث عثمان وراء الإمام طالباً من القدوم على جناح السرعة وتهدئة الثائرين على سياسته؛ وكان الخليفة الثالث يدرك تماماً بأن الشخص الوحيد المؤهل لهذه المهمّة الحسّاسة هو الإمام عليه السلام؛ وعاد علي بناءً على أمر عثمان، وكان للثقة العالية التي يتمتع بها لدى الناس وقبوله في السفارة بين الأمة الثائرة والخليفة الأثر البالغ في تهدئة الامور إلى حين؛ غير أنّ المحيطين بعثمان من أمثال مروان أفشلوا تلك المساعي الخيّرة، باستثناء نائلة زوجة عثمان التي كانت تشير عليه بأن لا يستمع إلا لعلي بن أبي طالب.

وبدل أن يغيّر عثمان سياسته بعث عبدالله بن عباس وراء الإمام يطلب منه مجدّداً مغادرة المدينة إلى ينبع؛ ويشعر الإمام بالمرارة جرّاء المواقف المتذبذبة لعثمان ويقول: «يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أنْ يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب أُقبل وأُدبر. بعث إليّ أن

اخرج، ثم بعث إليّ أن أقدم ثم هو الآن يبعث إليّ أن اخرج، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»(١).

وعندما تفاقم الوضع وساءت الأمور وطلب الناس من الإمام أن يكون مندوبهم لعرض مطالبهم على عثمان، ولم يألو الإمام في إسداء النصح إلى الخليفة بأسلوب مؤثر قائلاً له: «وإني انشدك الله ألاّ تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنّه كان يقال يقتل في هذه الامة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها ويبثّ الفتن فيها... فلا تكونّن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضّي العمر»(١).

وتأثر عثمان قائلاً: (كلّم الناس في أن يؤجّلوني حتى اخرج إليهم من مظالمهم) فأجاب الإمام عليه السلام: «ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه».

غير أن مروان أحبط ذلك قائلاً دون حياء: (والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوّف عليها).

وتطورت الامور من سيء إلى أسوأ إلى أن انتهت بمصرع عثمان، واندفعت الجماهير الثائرة تطلب من الإمام تحمل مسؤولياته في الخلافة، وقد بلغت شدة الزحام حدّاً جعلت الإمام يشير إلى ذلك في واحدةٍ من المناسبات قائلا: «وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم وردها حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب»(٢).

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٢٤.
(١) نهج البلاغة/ خطبة ١٦٤.
(٢) نهج البلاغة/ خطبة ٢٢٩.

في مثل هذه الظروف تسنم الإمام على منصب الخلافة في حين كانت بذور الفتنة والتفرقة التي بذرت فيما مضى قد نبتت، فحلّ التشتّت محل الوفاق والفرقة بدل الاتحاد.

ولقد بدأت الفتنة من قلب الجزيرة العربية نفسها لتنتشر هنا وهناك إلى سائر الامم التي دخلت في الإسلام مما عرّض المسلمين إلى اخطار عديدة.

يقول الإمام في إحدى المناسبات: «ثم إنكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت فاتقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النقمة». ثم يقول عليه السلام: «تثبتوا في قتام العشوة واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها وظهور كمينها وانتصاب قطبها ومدار رحاها»[1].

هذه الفتن التي تترعرع وتشبّ في أوقات الترف وفترات الطغيان فتبرز العقد النفسية وتظهر الأحقاد الدفينة.

وقد كان الإمام ذات يوم يتحدث إلى الناس عن الفتن المقبلة ويحذّرهم منها، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها؟ فقال عليه السلام: «إنه لمّا أنزل الله سبحانه قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[2] علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: يا عليّ إن أمّتي سيفتنون من بعدي. قلت: يا رسول الله أو ليس قد قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عنّي الشهادة فشقّ عليّ ذلك فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك، فقال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر. ثم قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربّهم ويتمنّون رحمته ويأمنون سطوته

(١) نهج البلاغة/ خطبة ١٥١.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ١.

ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلّون الخمر بالنبيّذ والسحت بالهدية والربا بالبيع. فقلت: يا رسول الله فبأيّ المنازل أنزل عند ذلك؟ أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: بمنزلة فتنة».

وقد كان للفتوحات الإسلامية الكبرى وتوسّع البلاد والغنائم العديدة والثروات الهائلة التي وقعت في أيدي المسلمين الأثر البالغ في زرع بذور الفتن خاصّة إذا أخذنا بنظر الإعتبار التقسيم الظالم لتلك الثروات، فبينما يتمتع البعض بالامتيازات الضخمة بقي قسم كبير من المسلمين يعيشون الحرمان، أضف إلى ذلك تصدّي أشخاص غير مخلصين من الحزب الأموي لمسؤولية القيادة مما جعل تلك الثروات الهائلة حكراً على البعض دون الآخر، وهو ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بالأثرة.

ومن هنا بدأت المظالم وبدأت روح الانتقام تتغلغل في النفوس، وقد أجملها الإمام في إحدى خطبه قائلاً: «اتّقوا سكرات النعمة واحذروا بواكق النقمة». فلقد فعلت النعمة والنقمة فعلها في المجتمع الإسلامي، فالزبير بن العوام مثلاً وكما جاء في مروج الذهب للمسعودي بنى القصور في البصرة والكوفة ومصر والإسكندرية، وعندما توفي خلّف ألف فرس وألف غلام وألف جارية بلغت قيمتها خمسين ألف دينار، وهذا الأمر ينسحب ـ أيضاً ـ على بعض الصحابة كطلحة وزيد بن ثابت ويعلي بن أمية وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، جعلت الإمام يشعر بالمرارة وهو يرى المجتمع الإسلامي يتحرك في طريق الإنحراف. يقول عليه السلام:

«وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً والشر فيه إلا إقبالاً والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، فهذا أوانٌ قويت عدّته وعمّت مكيدته وأمكنت فريسته، اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً أو غنيّاً بدّل نعمة الله كفراً أو بخيلاً اتّخذ البخل بحق الله وفراً أو متمرداً كأنّ بأذنه عن سمع

المواعظ وقراً. أين خياركم؟ وصلحاؤكم أحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم والمتنزهون في مذاهبهم؟»[(١)].

ولقد حاول الإمام فور تسلّمة زمام القيادة إصلاح الامور وحصر برنامجه السياسي في الإصلاحات الداخلية مركزاً تحذيره على مخاطر «سكرات النعمة وبوائق النقمة» ولم يجد معارضوه ممن استهوتهم الحياة الدنيا سوى دم عثمان وقميصه ذريعة لتحقيق أهدافهم.

وهكذا أمضى الإمام عهده القصير في معالجة هذه المسألة وآثارها، ومن العجيب أن الذين كانوا يتهمون الإمام بدم عثمان كانوا في الصفوف الأولى من معارضي عثمان والمسؤولين مباشرة عن قتل عثمان، إضافة إلى مسألة التحكيم التي عانى منها الإمام واتهم بترتيبها في حين كانوا هم المخططين لها.

ففي مسألة عثمان لم يبذل أحد من الناس ما بذله أمير المؤمنين عليه السلام من جهود مضنية في سبيل إخماد الفتنة، بل إن إحباط مساعيه عليه السلام هو الذي أدّى فيما بعد إلى مصرع عثمان.

يقول الإمام عليه السلام في رسالة جوابية بعث بها إلى معاوية ردّاً على اتهاماته: «فإيّنا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله، أمّن بذل له نصرته واستكفّه أم من استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه حتّى أتى قدره عليه، كلا ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[(١)]»[(٢)].

---

(١) نهج البلاغة.

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٨.

لقد رفض عثمان تحت تأثير بعض المنحرفين جميع اقتراحات الإمام لحلّ المسألة بالطرق السلمية في حين تقاعس معاوية متعمداً من إغاثة عثمان في أحلك الظروف التي مرّت بالأخير.

لقد كان معاوية ينتظر مصرع عثمان ليكون له ذريعة للوصول إلى أهدافه، يقول الإمام في رسالة أُخرى إلى معاوية: «فإنّك إنما نصرت عثمان حين كان النصر لك وخذلته حين كان النصر له»[١].

لم يكن معاوية ليهمه مصرع عثمان بل كان همه الأول والأخير هو تحقيق أهدافه الشخصية، فعندما استنجده عثمان لم يتحرك معاوية خطوة واحدة لإغاثته ولكن وبعد أن رأى قميصه سيحقق أهدافه التي يصبو إليها صرخ: واعثماناه!

وطالما كرر الإمام ذلك في خطبه وأحاديثه قائلاً: «وإنهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه»[٢].

وهذه الحقيقة تنطبق تماماً على بعض الذين اتّخذوا من دم عثمان ذريعة لتحقيق أهدافهم وضمان مصالحهم أمثال طلحة والزبير وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وآخرين.

أمّا الاتّهام الآخر الذي عانى منه الإمام كثيراً فهو مسألة التحكيم. في حرب صفّين حيث كانت الحرب محتدمة وكان النصر يلوح إلى جانب الإمام وإذا بمعاوية وعمرو بن العاص يقرران رفع المصاحف وإعلان التحكيم قائلين: «بيننا وبينك كتاب الله». وهكذا ارتفعت عشرات المصاحف على رؤوس الرماح، غير أنّ الإمام أمر باستمرار الحرب قائلاً: «إنّها كلمة حق يراد بها باطل» ولكن الحيلة كانت قد انطلت

---

(٢) نهج البلاغة/ كتاب ٢٨.

(١) نهج البلاغة/ كتاب ٣٧.

(٢) نهج البلاغة/ خطبة ٢٢-١٣٥.

على العشرات ممن يقرؤون القرآن قائلين: (نعم، كتاب الله بيننا وبينهم)؛ وطلبوا من الإمام إيقاف العمليات الحربية. وقد حاول الإمام إقناعهم بأنّ هذه المسألة مجرّد حيلة، لكنهم أصرّوا وأعلنوا تمرّدهم على الإمام والتهديد بتفجير الموقف لصالح معاوية. وعندها أذعن الإمام لرأيهم وأمر قادته بإيقاف الحرب.

ولم يكتف هؤلاء المتمردون بذلك بل تدخّلوا في انتخاب من يمثّل الإمام في مفاوضات التحكيم تلك؛ وبعد أن خُدع المتمردون بإنخداع ممثلهم انقلبوا على الإمام مرّة أُخرى وحمّلوه مسؤولية ما حصل وأعلنوا أن مسألة التحكيم بحدّ ذاتها كفر وأنهم قد تابوا إلى الله من ذلك، وطلبوا من الإمام أن يعلن كفره ومن ثم توبته. وهكذا ظهر (الخوارج) كحزب يناهض الإمام وخنجر طعن الإمام طعنة جبانة، واعْتُبِروا أكثر أعداء الإمام خطراً على الإسلام، ذلك أنّ عداءهم كان ينطلق من أساس فكري وفلسفي خاطئ وخطير. وقد بلغ تعصّبهم حدّاً جعلهم يخططون لتصفية الإمام جسدياً، وهذا ما حصل حيث استشهد الإمام بضربة سيف مسموم وهو يصلّي لله في مسجد الكوفة على يد واحد من أولئك الأشقياء ألا وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

ولقد كان الجهل وراء جميع تلك المآسي والفتن والمصائب التي عصفت بالأُمّة التي استحالت إلى لعبة بأيدي بعض الذين استبد بهم حب الدنيا.

يقول الإمام شاكياً: «إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً ويموتون ضلّالاً ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرّف عن مواضعه»[1].

(١) نهج البلاغة/ خطبة ١٧.

تربية الإمام علي عليه السلام

أو منزلة نهج البلاغة

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله محمد وآله الطاهرين.

يُجمع المؤرّخون على أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد أولى علياً عليه السلام رعاية خاصّة منذ نعومة أظفاره، فقد حمله إلى بيته مذ كان صغيراً وزقّه تربية وعلماً، ولم يتعرّف علي عليه السلام على غير أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقد لازمه ملازمة الظل يذهب معه إلى كل مكان حتى عندما كان الرسول يخلو إلى ربّه في تعبّده وانقطاعه في التفكير وتدبّر أمور العالم.

ويكاد يُجمع المؤرّخون أيضاً على أن الضائقة الاقتصادية التي حلّت بعمّه أبي طالب وكثرة عياله هي التي دفعت الرسول إلى الإقدام على تكفّل عليّ ومحاولة ردّ الجميل لعمّه الذي تكفّل طفولته.

فقد ذكر المؤرّخون أن القحط قد عصف بأُسرة أبي طالب مما حدا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يقترح على عمّيه حمزة والعبّاس التخفيف من أعباء أبي طالب رضوان الله عليه، وقد احتفظ أبو طالب بعقيل إلى نفسه وسمح لهم بباقي أولاده فأخذ العباس طالباً وأخذ

الحمزة جعفراً وتكفّل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم علياً. وهذه القصّة تبدو بعيدة عن الواقع لأسباب منها: أنّ علياً كما يُجمع المؤرّخون كان في سنّ الخامسة أو السادسة من عمره وأن جعفراً كان يكبر علياً بعشرة أعوام وأن عقيلاً كان يكبر جعفر بعشرة أعوام أيضاً كما أن طالب أكبر من عقيل بعشرة أعوام هو الآخر، وعلى هذا فإن طالباً يكون في سن الخامسة والثلاثين وعقيلاً في سنّ الخامسة والعشرين وجعفراً في الخامسة عشرة؛ فمن غير المعقول أن يتكفّل أحدٌ رجالاً بهذه الأعمار، أضف إلى ذلك أن حمزة كان له من العمر آنذاك خمسة وثلاثين عاماً أي بقدر سنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسنّ طالب الذي لم يرد له ذكر في بعض الروايات التي أشارت إلى موضوع الكفالة كما أهملت ذكر حمزة أيضاً، حيث اقتصرت على أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عرض الأمر على عمّه العباس حيث امتنع أبو طالب عن تسليم عقيل فأخذ العباس جعفراً وحمل الرسول عليّاً.

وإذن فهناك تضارب في الروايات ولا نعلم مدى صحّتها، خاصّة إذا أخذنا بنظر الإعتبار أن تكفّل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام لم ينحصر بسنة واحدة أو سنتين بل امتد لسنين طويلة، وكان يرافق النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في أماكن تعبّده، كما أنّ العلاقة الاستئناسية التي حظي بها الإمام من لدن النبي والعطف والحنان والإهتمام لا يمكن تفسيرها بأنها محاولة لرد الجميل لأبي طالب.

يذكر ابن أبي الحديد رواية عن ابن عباس بأنّه سأل أباه العباس بن عبد المطلب: أي بنيك أحبّ إلى رسول الله فأجاب العباس: علي؛ فقال ابن عباس: أنا أسألُك عن بنيك وأنت تجيبني علي؟! فقال الأب: لقد كان رسول الله يحب عليّاً حباً لم يحبّ به أحداً غيره.

إن هذه الرعاية الخاصّة التي أولاها النبيّ لعليّ مذ كان صبيّاً إنّما كانت إعداداً له لكي يكون وزيره وناصره في المستقبل وليكون منه بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة.

يتحدّث الإمام عن هذه الفترة من حياة الرسول قائلاً: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أُمّه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به»[١].

هكذا نشأ علي عليه السلام كغصن في شجرة كلاهما يتغذيان من جذر واحد، كما عبّر الإمام: «وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد»[٢].

وقد بلغ من تأثر الإمام بأخلاق الرسول ومسيرته وذلك التشابه المدهش بين الشخصيتين في المواقف حدّاً جعلت الشريف الرضي يذكر ذلك لدى جمعه خطب أمير المؤمنين في نهج البلاغة. يقول في مقدمته:

(عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي).

إن هذا التشابه وهذا التناغم في منطق النبي والوصي إنما يعود إلى وحدة الأصل وتوحّد الجذور، ويعود إلى أن علياً ترعرع وتفتح في بستان النبوة وإضافة إلى علاقة النسب وقرابة الدم فهناك انسجام روحي ومعنويّ وحّد بين الشخصيتين.

إن الإمام لم يترعرع في أكناف شخص أو معلم عادي وإنما تربّى في أحضان الرسالة الإلهية، وهذا نهج البلاغة ـ وبغضّ النظر عن قيمته البلاغية بما يمتاز به من قوة في الأداء وجزالة في الاسلوب بحيث اعتبره الشريف الرضي وسمّاه «نهجاً للبلاغة» ـ فإنه يزخر بالمعارف الإسلامية الواسعة والكنوز الإنسانية الثرة تجعله أعظم تراث إسلامي بعد القرآن على الإطلاق.

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٢٢٤ القاصعة.
(٢) نهج البلاغة/ كتاب ٤٥.

لقد كان الأعداء والأصدقاء يتهافتون على حفظ كلماته وكانت خزائن الأمويين وهم أشدّ أعدائه تزخر بخطبه وأحاديثه.

فهذا عبد الحميد الكاتب الشهير الذي كان يكتب لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين والذي كان مضرب المثل في البلاغة والفصاحة حتى قيل: (بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) عندما قيل له: (ما الذي خرّجك في البلاغة؟ قال: أحفظ كلام الأصلع) يعني بذلك علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويقول الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) مشيراً إلى مقولة الإمام عليه السلام: «قيمة كل امرئٍ ما يحسنه» يقول: لو لم يكن في الكتاب إلا هذه العبارة لكفى بل لزاد على الكفاية وأفضل الكلام ما قلّ ودلّ ثم يقول: (وكان الله عزّوجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على نية صاحبة وتقوى قائله).

ثم يصف حديث عليّ بأنه يسمو في المعنى فصيح في اللفظ من غير تكلّف وينزل على قلب المرء نزول الغيث على الأرض؛ ولم يكن الجاحظ من شيعة علي أو محبيه بل كان معادياً وكان مائلاً إلى النصب على ما ورد في كتب التاريخ.

كما ورد في كتب التاريخ بأنّ عدي بن حاتم الطائي ـ الذي يعد من أبرز وأعظم أصحاب علي عليه السلام والذي قدّم أولاده الثلاثة شهداء في معركة صفين وهم طريف وطارف وطرفة ـ بأنّه دخل على معاوية بن أبي سفيان وذلك بعد أن انتقلت الخلافة إليه فسأله الأخير: (أين الطرفات؟) فقال عدي: (قُتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب) فقال معاوية: (ما أنصفك عليّ إذ قدّم بنيك وأخّر بنيه) فأجاب عدي بحزم: (بل ما أنصفتُ علياً إذ قُتل وبقيتُ)؛ فقال معاوية: (صف لي عليّاً) فقال عدي: (اعفني) فقال معاوية: (لابد من ذلك)، وعندها قال عدي: (كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول عدلاً ويحكم فصلاً تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه) ثم استرسل في الوصف

حتى سالت دموع معاوية على لحيته وتمتم قائلاً: (رحم الله أبا الحسين، كان كذلك. فكيف صبرك عنه؟) فقال عدي: (صبر من قُتل وليدها في حجرها).

لقد كان الأعداء والأصدقاء يجمعون على أنه (تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه).

نعم، إن نهج البلاغة يعدُّ كنزاً نفيساً ونبعاً ثرّاً يُغذّي الروح، ويهب القلب الطمأنينة والسلام. إنه دائرة معارف إنسانية كبرى، فهو يزخر بمختلف البحوث والتحاليل الفكرية الدقيقة بدءاً بتوحيد الله وصفاته وأسمائه والنبوة والمعاد وأسرار الخلق ووجود العالم ونشأة الإنسان وبعثة الأنبياء إلى المسائل الإسلامية والقرآنية العديدة، إلى القضايا الإنسانية المختلفة والمواعظ المؤثّرة والأخلاق الرفيعة من صبر وشجاعة وعفّة وتقوى واستقامة وهمّة وإرادة؛ كل ذلك باسلوب رفيع خلاّب يأخذ بالنفوس والألباب.

كما يضم بحوثاً اجتماعية دقيقة تحلل الفتن وأسبابها وآثارها والخلافات وأضرارها، والعزة وشوكتها، والذلة وخسائرها، وأُصول العدل والمساواة والحقوق والحكم والقانون وواجبات الحاكم والتزامات الرعية ووظائف المجتمع وغير ذلك من شؤون الحياة، إضافة إلى شؤون الحرب والجهاد والقيادة إلى غير ذلك من الحوادث التي عصفت بالبلاد الإسلامية وجرّت عليها الويلات كمصرع عثمان وحرب الجمل وصفّين ومسألة التحكيم وقضية الخوارج.

إضافة إلى قسم يشتمل على الملاحم وحوادث المستقبل التي سمعها عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كمستقبل البصرة والكوفة وفتنة الزنج واستبداد عبد الملك والحجاج بن يوسف، وما سيؤول إليه مصير الأمويين.

كما يضم أيضاً سياسته ومنهجه في الإدارة والحكم وغير ذلك من الأحكام الإسلامية كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة وصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تزخر ببيانات الحرب والإقدام، وبالصور العرفانية الرفيعة، والسير إلى

الله، حيث حظي التوحيد وصفات الباري جلّ وعلا باهتمام كبير، فانفردت خطب كاملة كلها تتحدث عن صفات الربوبية ومعاني الأحد، الامر الذي يجعل المرء يؤمن إيماناً قاطعاً بأن هذه الشخصية إنما استقت نورها من مشكاة النبوة ومن عالم المعاني، وعلى حد تعبير جبران خليل جبران: (جاور الروح الكلي وسامرها).

ومن الموضوعات التي أولاها الإمام اهتماماً في خطبه وأحاديثه مسألة حب الدنيا والزهد فيها والاتجاه نحو الآخرة وذكر الموت واغتنام فرصة العمر حيث يضع الإمام من قيمة الدنيا وزخرفها وما تنطوي عليه من ماديّات في حين يرفع من شأن القيم المعنوية.

ومن عجائبه عليه السلام ـ كما ذكر الشريف الرضي ـ التي انفرد بها، أن كل كلامه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل لم يعترضه الشك في أنه كلام من لا حظّ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة... ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مسلطاً سيفه فيقط الرقاب ويجدّل الأبطال، وهو مع تلك الحال زاهد الزهّاد، وهذه من فضائله العجيبة التي جمع بها بين الأضداد.

ويضم نهج البلاغة بين دفّتيه بحوثاً في مسألة الحقوق الاجتماعية والعدالة والمساواة والثورة على الظلم ورفض العداوات، فلقد كان عليه السلام مثالاً للعدل والمساواة فانعكس ذلك على أحاديثه وكلماته، فهو القائل: «الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»[1].

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٣٧.

كما تحدّث عن مسألة تبادل الحقوق في المجتمع، وأن كل حق يتمتع به إنسان يقابله واجب، وأن الحقوق تجري للجميع كما تجري عليهم، فليس هناك فئة تتمتع بالحق دونما واجب، وليس هناك فئة عليها واجب دون أن تتمتع بالحق.

ومن المسائل الأُخرى التي يضمها الكتاب، تلك التي تبين منهج الإمام في الإدارة والحكم والسياسة بعيداً عن الكذب والدجل والحيلة والمكر والخديعة والنفاق، فكان خطّه واضحاً ومواقفه لا تقبل المماطلة.

وقد بلغت بعض عباراته من العمق ما جعل البعض يتيه في تفسيرها ويخطئ في تأويلها، حيث ينبغي في مثل هذه الحالة أن نأخذ شخصيته وسائر أحاديثه لكي يمكن بعد ذلك معرفة المعنى المنشود.

لقد كانت حياة أمير المؤمنين تجسيداً لكل الكلمات التي نطق بها، فلم يكن يتكلف الحديث في موضوع معيّن، بل كان مثالاً لكل ما قال وفعلاص لكل كلام، وكان في قمة الزهد وهو يتحدث عن الزهد، وكان في قمة العرفان وهو يشير إليه، وكان في قمة الإخلاص للإسلام عندما يؤكّد على وجوب التضحية في سبيل إعلاء كلمة الحق. ولقد اجتمعت في شخصيته جميع الفضائل الإنسانية مما جعله مثالاً تقدّسه البشرية جمعاء.

الاسلوب السياسي لدى الإمام علي عليه السلام

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه:

«إن الوفاء توأم الصدق ولا أعلم جنّة أوقى منه، ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم؟ قاتلهم الله! قد يرى الحوّلُ القلّبُ وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[1].

تحدّثنا في الليلة الماضية واستعرضنا بعض ما يضمّه نهج البلاغة من المعارف والعلوم وما يزخر به من الكنوز المختلفة؛ وقد ركّز الإمام فيما ركّز عليه من المسائل على منهجه في الإدارة والحكم وسياسته في ذلك، والتي لم تجد تفهّماً من قِبل أهل الرأي آنذاك فضلاً عن عامّة الناس.

ولقد أشرنا فيما مضى إلى الظروف التي أحاطت بالإمام قبيل وبعد تصدّيه للخلافة ومعاناته من مشاكل عديدة وقضايا معقّدة كمصرع عثمان ومسألة التحكيم، وقد كانت الأُولى ذريعة لأهل الجمل وصفين وكانت الثانية للخوارج.

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٤١.

وفي هذا البحث سنشير إلى موضوعين أو اقتراحين تقدّم بهما بعض أصحابه بنوايا حسنة، ولكن منطق علي عليه السلام ومنهجه كانا يرفضان ذلك.

الموضوع الاول يتعلق بمسألة العطاء، فلقد أقدم الإمام على إلغاء جميع الامتيازات التي كانت تفرّق بين العرب والموالي؛ وبين السادة والعبيد؛ وبين القرشيّ وغير القرشيّ. وعندما اعترض البعض من المتضررين، وعندما اقترح البعض العودة إلى السياسة القديمة في العطاء عن حسن نية ردّ الإمام مستنكراً: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير» ثم يقول: «لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله».

وبالرغم من إدراك الإمام إلى أن ذلك سوف يضعف مركزه السياسي إلا أنه كان يقول: «ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله»[1].

ثم يستخلص الإمام نتائج ذلك قائلاً: «ولم يضع امرؤ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلاّ حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودّهم، فإن زلّت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خليل وألأم خدين».

وقد ذكر التاريخ أن عقيلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام وكان قد كُفّ بصره، فرحّب به الإمام ثم التفت إلى ابنه الحسن وقال: «قم فأنزل عمك» ثم أمره بأن يشتري له قميصاً اداءً؛ فلمّا حضر العشاء فإذا خبز وملح، فقال عقيل: (لي إلا ما أرى؟» فقال الإمام: «أوليس هذا من نعمة الله وله الحمد كثيراً؟!» فقال عقيل: (اعطني ما أقي به دَيني وعجّل سراحي حتى أرحل عنك) فقال الإمام: «فكم دَينك يا أبا يزيد؟» فقال: (مائة

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ١٢٤.

درهم)، قال: «لا والله ما هي عندي ولا أملكها، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فأواسيكه، ولولا أنه لا بدّ للعيال من شيء لأعطيتك كله» فقال عقيل: (بيت المال في يدك وأنت تسوّفني إلى عطائك؟ وكم عطاؤك؟ وما عساه يكون ولو أعطيتنيه كله؟) فقال: «ما أنا وأنت إلا بمنزلة رجل من المسلمين» وكانا يتكلمان فوق قصر الإمارة مشرفَين على صناديق أهل السوق، فقال له علي: «إن أبيتَ يا أبا يزيد ما أقول فانزل إلى بعض هذه الصناديق فاكسر أقفاله وخذ ما فيه» قال: (وما في هذه الصناديق؟) قال: «فيها أموال التجار قال أتأمرني أن أكسر صناديق قوم قد توكّلوا على الله وجعلوا فيها أموالهم؟ فقال أمير المؤمنين: «أتأمرني أن أفتح بيت مال المسلمين فأعطيك أموالهم وقد توكّلوا على الله وأقفلوا عليها؟ وإن شئت أخذت سيفك وأخذتُ سيفي وخرجنا معاً إلى الحيرة فإنّ بها تجّاراً مياسير، فدخلنا على بعضهم فأخذنا ماله» فقال: (أوَسارقاً جئت؟) قال: «تسرق من واحد خير من أن تسرق من المسلمين جميعاً»[1].

ويقول الإمام في كتابه إلى أحد عمّاله: «وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل... وإنّ أعظم الخيانة خيانة الامة وأفظع الغش غش الأئمة».

وأما ما يتعلق بالموضوع الآخر فهو عدم اعتماد المراوغة والخداع والدجل في السياسة بعيداً عن روح الصدق والصراحة والوفاء، كما يفعل خصمه معاوية الذي وظف المكر والخديعة والكذب في سبيل تحقيق أهدافه، حيث لم يتورع عن استخدام أقذر الوسائل للوصول إلى مراميه.

---

(١) بحار الانوار ج٤١/ص ١١٣.

وهكذا أصبح منهج علي في السياسة والحكم ومنهج معاوية أساساً للمقارنة، حيث تأسّف البعض آنذاك وهم يرون معاوية يحقق بعض النجاح في حين كان الإمام يخسر بعض المواقع؛ ولذا فقد كانوا يتمنّون لو أنّ علياً عليه السلام اعتمد نفس الطرق الملتوية التي سلكها معاوية بن أبي سفيان.

لقد كان الإمام يدرك تماماً ما يدور من همس بهذا الشأن، ولذا فقد كان يتحدث باستمرار عن منهجه السياسي والإداري مدافعاً عن القيم التي ينطلق منها في ترتيب مواقفه قائلاً: «واللهِ ما معاوية بأدهى منّي ولكنه يغدر فيفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة»[1].

ثم يعلن رأيه في ذلك قائلاً: «والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشدّة».

وهكذا فإن الاختلاف بين الأهداف يعكس أثره على الوسائل، فالأهداف السامية تحققها الوسائل السامية، والأهداف الرخيصة تستلزم السبل الرخيصة. وهذا ما نجده واضحاً في الأوامر العسكرية التي صدرت عنهما حيث يظهر التناقض بين الشخصيتين في كل الجوانب. فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام يزود ويوصي طلائع الجيش المؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل قبل أن تتحرك بقيادة معقل بن قيس الرياحي قائلاً: «اتّق الله الذي لابد لك من لقائه ولا منتهي لك دونه»[2] ثم يوصيهم بضبط النفس وتجنب القتال ما أمكن ذلك قائلاً: «ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم» فليست هناك عداوة شخصية، وليست هناك حرب من أجل المصالح، إنما هو الحق فقط اساس الصراع.

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة ٢٠٠.

(٢) نهج البلاغة/ كتاب ١٢.

أما معاوية فإن تعليماته العسكرية لتنضح دموية وإرهاباً وسفكاً للدماء وهتكاً للأعراض من أجل تحقيق الأهداف بأيّ ثمن كان، فها هو يوصي بسر بن أرطأة أحد قادته الدمويين قائلاً: (سِر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس وأخف من مررت به وانهب أموال كل من أصبت له ممن لم يكن له دخل في طاعتنا).

ثم يوصي قائداً آخر هو سفيان الغامدي بالإغارة على العراق قائلاً: (واقتل كل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك واخرب كل ما مررت به من القرى واحرب الاموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع).

هكذا كان معاوية ينشر الخراب والدمار ويحرق القرى ويقتل ويسفك الدم الحرام في سبيل أهدافه الدنيئة. ولقد وظف جميع الوسائل في ذلك وأقدم على غتيال العديد من الشخصيات أمثال مالك الأشتر النخعي وعبد الرحمن بن خالد وغيرهما، واشترى ذمم العديد من الزعماء مبذّراً أموال المسلمين؛ في حين كان الإمام يعيش في شظف من العيش وكان هدفه تحقيق العدالة وإرساء قواعد الحكم الإسلامي حتى استشهد عليه السلام؛ بل حاول أن يستمر العدل حتى بعد رحيله عن هذه الدنيا؛ ولكي يضع النقاط على الحروف جمع بني عبد المطلب وهو على فراش الموت، لكي لا يتحول مصرعه عليه السلام إلى ذريعة لهم أو لغيرهم فيُقتل الأبرياء؛ قال عليه السلام: «يا بني عبدالمطلب لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قُتل أمير المؤمنين. ألا لا يُقتَلنَّ بي إلا قاتلي. انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة»[(١)].

وقبل أن يودّع الدنيا خلّف للأجيال وصيته المقدّسة التي عكست روحه الكبيرة وسياسته والأهداف التي جاهد من أجلها. يقول عليه السلام: «أوصيكما ـ الحسن والحسين ـ وجميع ولدي وأهلي من بلغه كتاب بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإنّي

(١) نهج البلاغة/ وصية ٤٧.

سمعت جدّكما صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام. الله الله في القرآن لا يسبقنكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم. والله الله في بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا، والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم أشراركم ثم تدعون فلا يُستجابُ لكم»[٢].

(٢) نهج البلاغة/ وصية ٤٧.

أعداء العقل

كثيراً ما أشاهد خلال تجاربي اليومية أن هناك أشياءً تمنع من تأثير بعض الأشياء الاخرى وتحاول محوها؛ فقد يملك دواء معين تأثيراً ما ولكن هناك دواء آخر يمنع من حدوث ذلك الأثر، وقد يوجد في بعض الأشياء نوع من السموم التي يبطل مفعولها بوجود مواد اخرى، تماماً كما هو الحال في عالم اليوم من حرب وحرب مضادّة، حيث يبالغ بعض المفكّرين في ذلك قائلاً بأن الأساس في العالم قائم على مبدأ الصراع وأن كل موجود يحاول محو وجود الآخر.

إننا لا ننكر أهمية هذا العامل ولكننا نستنكر هذه المبالغة في تصوير حجمه.

من ناحية اخرى فإن الوجود الإنساني هو نسخة من العالم الأكبر، فكل ماهو موجود في هذا العالم الواسع يوجد له نموذج في وجود الإنسان، ولهذا نرى أن القوى المعنوية للبشر تتأثر فيما بينها، فبعضها ينمو تأثيره ويشتدّ وبعضها ينتهي ويتلاشى.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع» ويقول عليه السلام: «آفة العقل التكبّر» ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «الهوى عدو العقل» هكذا تزخر النصوص الدينية بالكثير من الأحاديث التي تتحدث عن المخاطر التي تتعرض للعقل من قبيل التكبر والطمع والتعصّب والعناد واللجاجة والغضب التي تحاول بشكل

أو آخر الحد من تأثير العقل أو إبطال دوره تماماً، ومن ثم اطفاء نوره لكي تعيش النفس في ظلمة دامسة.

وهذا نموذج من الصراع الذي نعيشه في العالم الأكبر حيث نرى له شبيهاً في نفس الإنسان.

يتحدث القرآن الكريم عن بعض الذين يملكون آذاناً ولا يسمعون بها وعيوناً ولا يبصرون بها، ذلك أنّها ﴿لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وخلاصة القول أن هناك بعض الصفات تبطل أثر العقل ودوره في نفس الإنسان، فتقليد الآباء والتعصب والحمية والعناد والمصالح الدنيوية كلها لا تسمح بالتسليم لمنطق العقل، وإن من أعداء العقل هي النفس الأمّارة بالسوء، وعلّة ذلك أن العدو يكون قد وضع يده على مركز حسّاس.

إن الإنسان ليحارب عدوه بسلاح العقل، ولو أن عدواً تمكّن من إحداث خلل في طريقة التفكير وسيطر على مركز العقل فإن خطره سيكون مدمّراً.

يقول الحكماء إن الأنبياء إنما بُعثوا لخدمة العقل والفطرة، تماماً مثل الطبيب الذي يخدم طبيعة الجسد. إن خدمة الأنبياء للعقول تختلف عن خدمة المعلم للتلاميذ حيث يقتصر تعليمه على علم معين أو فن معين. إن عمل الأنبياء هو المحافظة على طهارة النفوس وسموّ الأخلاق وصونها عن تأثير الهوى والحرص والطمع والشهوة، وتحرير العقل من أسر القيود المادّية، وقد أكّد القرآن الكريم على أن التقوى تحرر الإنسان وتجعله قادراً على تمييز الحق

من الباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[١]. وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «واعلموا أنه من يتّق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظُلَم»[٢].

لقد جاء الأنبياء ليعلّموا الإنسان التقوى والطهر والفضيلة، وأن يهزم الإنسان أهواءه النفسية من أجل تحكيم سلطة العقل.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أصدقاؤك ثلاثة، وأعداؤك ثلاثة، فأصدقاؤك: صديقك وصديق صديقك وعدو عدوّك، وأعداؤك: عدوك، وعدو صديقك وصديق عدوك»[٣].

وإذن فإن أحد أنواع الأصدقاء هو عدو عدوك؛ وعليه ينبغي تمتين العلاقة بين التقوى والعقل، ومن خلال ذلك سنرى أن التقوى تتغلب على أعداء العقل حيث تحدّ من تأثير الهوى والشهوة وتطلق سلطة العقل وتعزّز من قدرته.

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٢) نهج البلاغة/ خطبة ١٨٣.
(٣) نهج البلاغة/ حكمة ٢٩٥.

التقوى والبصيرة

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[1].

كثيرة هي الآيات التي تشير إلى علاقة التقوى بالبصيرة، فكلما طهر الإنسان وتجذرت في نفسه ملكة التقوى، كلّما ازدادت بصيرته نفاذاً.وازداد فكره توقّداً؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

أي أن الإيمان يجلو الروح ويزيد من شفافيتها ويحفظها من غبار الحسد والحقد والأنانية والعناد والتعصب، وبهذا يمنح الفرصة للعقل من أجل الاستفادة أكثر فأكثر من أنوار الله ورؤية الحقائق.

وهناك ارتباط وثيق بين القلب الذي هو مركز العواطف والأحاسيس وبين العقل الذي هو مركز الشعور والإدراك. فمن القلب تنطلق العواطف والميول والأحاسيس، وفي العقل يتألّق الفكر والمنطق والدليل.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

لو أردنا للعقل أن يعمل بحرية فيفكر ويستنتج ويستدل، فينبغي أن نراقب عواطفنا وأحاسيسنا. فإذا استسلمنا للحقد والحسد فيجب أن نعلم أن وقود هذه النار ليس إلاّ وجودنا وسلامتنا وأعصابنا وقلوبنا وكل جوارحنا، ومن ثم تتصاعد سحب الدخان فتملأ سماء أرواحنا وبالتالي يصاب العقل بالعمى ويفقد رؤيته. يقول الإمام علي عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع» ويقول عليه السلام أيضاً: «عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله»[(١)].

قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[(٢)] كما يزخر القرآن بالآيات التي تتحدث عن اولئك الذين يمتلكون آذاناً ولكن لا يسمعون بها وعيوناً ولكن لا يبصرون بها؛ وقد عبّر عنهم القرآن بقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[(٣)].

وهذا في الحقيقة نوع من الأمراض النفسية والأخلاقية يفقد إثرها الإنسان قدرته على الإدراك، فيمر غير مكترث بحوادث الزمن غير آبه بتجارب الحياة وعظاتها. وبالرغم من أن الدهر هو أعظم معلّم وأكبر مدرسة وأن التاريخ الإنساني وما حلّ بالذين مضوا من قبل أفراداً كانوا أم شعوباً زاخر بالعبر التي تعلّم الإنسان.

إن رمز السعادة يكمن في استلهام العبر والدروس من تجارب الماضين؛ يوصي الإمام علي عليه السلام ولده الحسن قائلاً: «أحي قلبك بالموعظة وبصّره فجائع الدنيا وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيّام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأوّلين، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا وعمّا

(١) نهج البلاغة/ حكمة ٢١٢.
(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٨.

انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبّة وحلّوا ديار الغربة، وكأنّك عن قليل قد صرت كأحدهم، فأصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك»[١].

قد تحدث تجربة أمام أعين المئات من الناس فهل يستفيد كل هؤلاء من ذلك؟ كلاّ بالطبع، ذلك أنها تتوقف على أمرين، الأول: مستوى العقل والعلم والذكاء، والثاني: مستوى الصفاء في النية والطهارة في القلب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢] كما يتساءل القرآن الكريم مشيراً إلى الفرق في ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٣].

ولقد قال أئمة الدين والأخلاق: ما لم يكن الإنسان على بصيرة من أمره فإنّه لن يعثر على طريق السعادة أبداً، وما لم يتخلص من دخان الحسد والحقد والأنانية والتكبر وسائر الرذائل فإن عقله عاجز عن هدايته إلى طريق الصواب.

---

(١) نهج البلاغة/ الوصية ٣١.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

الروح السليمة

لو أنّ شجرة سليمة الجذع سالمة الجذور تعرضت إلى بعض الحوادث فتساقطت ثمارها وتناثرت أوراقها أو بريت أغصانها أو عصف البرد بخضرتها أو التهمت الطير ثمارها وأفسدتها، فإن ذلك أمر يدعو إلى الأسف ولكنه لا يدعو إلى القلق أبداً، لماذا؟ لأن جذعها سالم ولذا فهي ستورق من جديد وستعود إليها خضرتها مرة اخرى، ثم تكتظ بالثمار ملقية ظلالها الوارفة من جديد، وما دام الأمر كذلك فإن من حق الإنسان أن يشعر بالأمل.

إن الوجود يشبه إلى حدّ بعيد شجرة مثمرة، فإن كانت سالمة من العيوب كانت نضرة قوية تهب الخضرة والثمار وتلقي بظلالها الوارفة على الطريق فيستريح عندها العابرون ويتفيأون ظلالها بعد أن أحرقتهم حرارة الشمس، ولكن هذه الشجرة قد تتعرض لبعض الحوادث من قبيل عبث الأطفال فتذهب تلك المعاناة في رعايتها أدراج الرياح.

وهكذا الإنسان يعاني ويتألم سنوات طويلة لكي يعدّ نفسه ويكوّن حياته وإذا كل ذلك يذهب في لحظة واحدة في ضربة من ضربات القدر تجعل منه بائساً فقيراً، ذلك أن متاع الحياة الدنيا معرض لآلاف الآفات كالغرق والحرق والخطف وغيرها. وبالرغم من

أن كل ذلك يبعث على الأسى، ولكنه لا يدعو إلى القلق خاصّة بالنسبة لاولئك الذين يتمتعون بالروح القوية والأمل.

إن الجسم السليم الذي يخضع لجراحة ما لا يدعو إلى القلق لأنه يملك استعداداً ذاتياً على التئام أنسجته، بعكس الجسم الذي يعاني من مرض السكري ـ مثلاً ـ فإن الجراحة هنا أمر يصعب علاجه وتجنب أخطاره، ولذا فهو يدعو إلى القلق، ذلك أن أدنى جرح بسيط يستغرق وقتاً طويلاً لالتئامه.

إن الإنسان الذي يتمتع بالمعنويات العالية وبالأمل يمكنه أن يجبر كل كسرٍ يتعرض له، إن الطامّة الكبرى تحلّ فيما إذا تعرّض الجذر نفسه للآفات، وإذن فلن يبقى للخضرة والثمار من أثر.

لو أُصيب الإنسان ـ لا سمح الله ـ في روحه وقلبه وذبلت عواطفه وأحاسيسه، وأصبح ساخطاً على الناس متشائماً منهم، ورأى نفسه وحيداً دون سند ومعين، إن مثل هذا الإنسان سيكون عديم النفع لنفسه وللآخرين، وعندها يتساوى موته مع حياته.

وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بالخسران المبين، فالخاسرون هم أولئك الذين خسروا أنفسهم وأرواحهم، فليس مهمّاً أن يخسر الإنسان بعض ثمار حياته ولكن الخسارة الكبرى أن يخسر الإنسان الأمل والرجاء، والأكبر من ذلك أن يخسر الإنسان الإيمان الذي هو نبع الأمل، ذلك أن الإيمان يصنع التوكّل والاعتماد والأمل.

إن الإنسان المؤمن لا يعتبر نفسه وحيداً أبداً وهو يردد دائماً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1]. فالمؤمن يتأثر للحوادث ولكنه لا يتزعزع أبداً ولا يشعر بالقلق، ذلك أن مصابه ليس في دينه وإيمانه وعقيدته.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٤.

قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٢].

إن الإيمان وفي الوقت الذي يمنح الإنسان الأمل ويهبه الرجاء فإنه يقف بوجه بعض الأماني الباطلة ويمنع من نموّها، ذلك أن الإنسان تحدّه الأماني، حيث تموج في أعماقه الأماني المحال، فقد يتمنّى أن تلك الحادثة التي وقعت له فيما مضى لم تقع أبداً أو يتمنى وقوعها على نحو آخر، أو يتمنى أن تعود إليه أيّام الشباب أو أنه كان من أُسرة فلان أو من عائلة الفلاني.

ومن هنا نعرف أن الأماني لا تخضع للمنطق ولا تنقاد لقانون العقل والفكر، ولذا ينبغي إصلاحها وإخضاعها لقاعدة المنطق.

إن هذه الآمال الوهمية التي يعبّر عنها الدين بأماني الشيطان تخدع الإنسان وتبدد عمره وتجعله هباءً منثوراً، فيستهلك وقته وفكره في الخيال.

وهنا ينسحب ومثله مَثَلُ الشجرة أيضاً، إذ تبرز ضرورة البستاني الذي يرعاها إذ لا يقتصر عمله على سقيها وحمايتها من الآفات فقط بل يتعدى ذلك إلى تشذيب أغصانها إذ يقطع ما يراه زائداً من أغصانها لكي لا تستهلك طاقتها في نمو الأغصان التي لا طائل من ورائها.

الإنسان هو الآخر يزخر بالكثير من الأماني الباطلة التي تستهلك فكره وعمره تماماً مثل الأغصان الزائدة التي يعمد البستاني إلى التخلص منها والإبقاء على الأغصان المكتظة بالثمار.

ولهذا فإن على الإنسان أن يكافح ويتخلص من أمانيه الباطلة ذلك أنها مجرّد أوهام شيطانية فارغة.

---

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1].

(١) سورة النساء: الآية ١٢٠.

الآمال الطوال

قال الإمام علي عليه السلام لرجل سأله موعظة:

«لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل ويرجو التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أُعطي منها لم يشبع وإن مُنع لم يقنع، يعجز عن شكر ما أُوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ويبغض المذنبين وهو أحدهم ، يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سقم ظل نادماً وإن صحّ أمِن لاهياً، يعجب بنفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتُلي، إن أصابه بلاءٌ دعا مضطراً وإن ناله رخاء أعرض مغتراً، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ويرجو لنفسه بأكثر من عمله، إن استغنى بطر وفتن وإن افتقر قنط ووهن، يقصر إذا علم ويبلغ إذا سأل، إن أعرضت له شهوة أسلف المعصية وسوّف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة، يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ، فهو بالقول والغرم مغنماً، يخشى الموت ولا يبادر الفوت، يستعظم معصية غيره ما يستقلّ أكثر منه في نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقّره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن، اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره

لنفسه ولا يحكم عليها لغيره، يرشد غيره ويغوي نفسه، فهو يُطاع ويعصي، ويستوفي ولا يوفي، يخشى الخلق في غير ربه ولا يخشى ربه في خلقه».

لقد بيّن الإمام علي عليه السلام المسافة التي تفصل الخيال والأماني مع العمل بعبارات عميقة تتغلغل في طيات النفس وتعرّف الإنسان ما يعتمل في باطنه من أفكار؛ إذ ينبغي على الإنسان أن لا تخدعه الأماني الطيبة، ألاّ يكتفي بها معتبراً نفسه إنساناً طيّباً وأن يبادر إلى العمل الصالح، فهو وحده الذي يجعله من زمرة الطيبين. يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ ذلك أن أساس سعادة البشر هو في العمل والمثابرة، العالم عالم حركة ونشاط فلا توجد قطرة أو ذرة دون عمل، فالسحب والرياح والضباب والشمس والأفلاك وكل شيء آخر في هذا الوجود هو في حركة ودوران، والإنسان شأنه شأن الموجودات والكائنات الأخرى في حالة حركة، وإذن فعليه أن يتحرك في المدار المنشود لكي يصل إلى سعادته.

عادة ما يكون الأفراد الذين يمتازون بالروح العالية والنشاط الدائب أقلّ ابتلاءً من غيرهم بالأماني البعيدة والخيالات الغارقة في الأوهام، ذلك أنهم يفكرون تفكيراً عملياً ومنطقياً ويتمنون أماني معقولة تدور في فلك حياتهم، فلا يحلّقون بأجنحة من الخيال والوهم؛ غير أن الأفراد الذين يعانون من أمراض نفسية والمصابين بالخمور والمسلوبي الهمّة والإرادة يكتفون بركوب سفن الخيال التي تبحر بهم بعيداً في عالم الوهم حيث لا عمل ولا نشاط، وهذا ما عبّر عنه الدين الحنيف بطول الأمل الذي يعاني منه الكثير من الناس إضافة إلى معاناتهم من كثرة التشكّي والكلام الذي لا طائل من ورائه، من غير أن يفكّر بالمبادرة إلى إصلاح نفسه وإنقاذها من مستنقع الوهم.

إن الإنسان يتمتع بقدر معيّن من الطاقة الفكرية والطاقة البدنية التي ينبغي توظيفها في مجال معيّن، فإذا ما صرف طاقته الفكرية واستهلكها في الخيال والوهم اضمحلّت وانتهت، وإذا تحوّلت إلى مجرّد كلام وتشكّي فلن يبقى مجال لاستهلاكها في

عمل مفيد. ولهذا نرى رجال الفكر أكثر الناس سلامة من مرض الوهم وعلـل الخيـال وأقلّهم كلاماً وتشكّياً.

الموت في نظر رجال الله

الخوف من الموت غريزة طبيعية موجودة لدى جميع الكائنات الحيّة، من أصغر موجود كالحشرات بل الكائنات أحادية الخلية إلى أكبر حيوان كالفيلة والأُسود؛ كلها تفر من الموت ما وسعها ذلك.

إن تصور فكرة الموت هو من أكثر التصورات رهبة ورعباً، ذلك أنّ الإنسان لا يهاب شيئاً هيبته للموت، بل إن خوفه من بعض الأشياء إنما منشؤه هو الخوف من الموت، ولولا الموت لما هاب الإنسان شيئاً.

إن أقوى الرجال في التاريخ قد أظهروا عجزهم في حضرة الموت، وأبدوا صَغاراً وانقلبت عقائد وأفكار بعضهم رأساً على عقب.

عندما شعر المأمون خليفة العباسيين القوي بدنوّ أجله وأُفول شمسه، أمر بضرب الخيام في الصحراء، وكان الوقت ليلاً وكانت النيران التي أشعلها الجند هنا وهناك تضفي على المشهد روعة وجلالاً. ورأى المأمون أن كل أمنياته قد ذهبت مع الريح وأن ملكه لن ينفعه في شيء؛ وفي هذه اللحظات راح ينظر إلى السماء ويصيح: (يا من ملكه في بقاء ودوام ارحم من مال ملكه وانطوى عزّه).

كان السلطان سنجر السلجوقي في لحظات حياته الأخيرة يتمتم بأبيات شعرية تظهر عجزه أمام الموت وهو السلطان الذي حارب أعداءه وقهرهم وفتح قلاعهم

الحصينة، وظهر له فيما بعد أن ملكه لم يكن سوى مجموعة من ألاوهام وأن الملك الحقيقي هو لله سبحانه.

إن جميع قصور الآمال والأماني التي يبنيها الإنسان إنما تقوم على أساس منخور، وأن الإنسان يقضي وقته ينسج من خيوط الأمل ولحمة الأوهام حياته، وإذا كل ذلك يذهب في لحظة واحدة وإثر حادثة صغيرة، وحينها يدرك أن كل ما رسمه من خطط لم يكن إلا على صفحة من الماء، وعندها تنقلب أفكاره، وتتبخر أمانيه.

لنفترض أن إنساناً كان يمضي في طريقه وهو يحلم بالمستقبل وبالأماني العراض ويخطط لذلك، ثم أخبره الأطباء فجأة بأنه مبتلىً بمرض سرطاني لا يمكن علاجه فماذا سيحدث حينها في أعماق ذلك الإنسان؟ لسوف يدوّي انهيار أمانيه وآماله وتنهار جميع خططه كمدينة تجتاحها السيول المدمّرة التي تجرف أمامها كل شيء، بل كمدينة تستقيظ على دويّ انفجار ذرّي يحوّل كل شيء إلى مجرد حطام وركام.

قد يتعرض إنسان إلى حادث رهيب يرى فيه الموت منتصباً أمام عينيه، كسقوط الطائرة التي يستقلّها أو غرق السفينة التي يركبها ثم تدفعه الأمواج إلى شاطئ النجاة، فستبقى هذه الحوادث المروّعة حيّة في ذهنه وتغيّر وتقلّب الكثير الكثير من أفكاره، حيث يظهر بجلاء زيف الأماني وخواء الآمال التي بنى عليها قصوره الخيالية وإذا كلها تنهار في لحظة واحدة عندما دوّت قنبلة الموت وتحوّل كل شيء إلى ركام.

ولكن القصور التي تنهض على أساس من الإيمان والعلم والعقيدة لا يؤثر فيها الموت أبداً. إنها تقوم على أُسس صلبة متينة.

يقول أفلاطون: «لم يتوقّف سقراط الحكيم في لحظات عمره الأخيرة عن تعليم تلاميذه، كان يفيض عليهم من حكمته وهو على أعتاب الموت، أما نحن التلاميذ فقد خنقتنا العبرة ولم نكن لنجرؤ على البكاء أمامه إلى أن أنهى درسه الأخير، ومن ثم تناول كأس السم فتجرّعه حتى النهاية».

نعم، إن الموت رهيب إذا ما ارتبط بالفناء والعدم والإنتهاء، فالزوال والفناء والعدم امور تبعث الوحشة في القلب، ولكن الأمر سيتغير إذا ارتدى الموت حلّة أُخرى فكان قنطرة تنقل الإنسان من عالم إلى آخر، وعندها يصبح أمراً محبّباً خاصّة لدى رجال الله الذين يهرعون إلى الموت كظامئين يرون من بعيد نبع ماء زلال.

فهذا علي بن أبي طالب عندما هوى السيف على هامته هتف من أعماق قلبه: «فزت وربِّ الكعبة».

لقد انتهت رحلة العذاب لديه وبدأ زمن الوصال مع ربّه ومعبوده، وإذا الموت لديه أمر كان ينتظره. يقول عليه السلام: «والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ولا طالع أنكرته، وما كنت إلا كقارب ورد وطالب وجد، وما عند الله خير للأبرار».

لم يهز الموت علياً بل بقي ثابتاً، بل كانت روحه تتألّق كلّما دنت ساعة الرحيل، وكان جلّ همّه أن يوصي الأجيال بالأهداف التي جاهد من أجلها وضحّى في سبيلها. يقول عليه السلام: «وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا تضيّعوا سنّته. أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين» ثم يتوجّه إلى الحسن والحسين عليهما السلام فيوصيهما قائلاً: «أوصيكما بتقوى الله وألاّ تبغيا الدنيا إن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا بالحق واعملا للأجر وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً. أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام». الله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننّا أنه سيورثهم. والله الله في القرآن لا يسبقنّكم بالعمل به غيركم. والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا. والله الله في الجهاد بأموالم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله. وعليكم بالتواصل وبالتباذل وإياكم التدابر والتقاطع.

ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

وهكذا رحل الإمام إلى الرفيق الأعلى وهو يردد كلمة لا إله إلا الله التي قضى حياته في الدفاع عنها والدعوة إليها.

ثروة الخُلق الحسن

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم لا تقدرو على أن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم».

إن ثروة الأخلاق لا تعادلها ثروة في الوجود، ذلك أن ثروة المال مهما كانت فإنها محدودة بمكن أن تطال فائدتها شخصاً في حين يبقى آخرون محرومون منها بل إنها قد تؤدي إلى البغض والحقد لدى البعض.

إن الفضيلة والطهر وطاعة الله وعمل الخير وما إلى ذلك من الصفات والخصال الإنسانية الرفيعة تزيّن الإنسان وتجعله محبوباً لدى الجميع دون أن يكون هناك مصلحة في هذا الحبّ؛ فالحقيقة عندما تلج قلب الإنسان تجعله عظيماً سامياً، فهل يمكن لأحد أن يحصر منظر النجوم وهي تتلألأ في السماء، أو الشمس وهي تسطع في النهار في طبقة معيّنة من الناس؟.

لماذا أصبح الرجال العظماء ومعلّموا البشرية ملكاً للجميع؟ كيف تمكّنوا من كسر قيود اللون واللغة والعرق؟ لأنهم كانوا في مقام إنساني جعلهم محبوبين لدى جميع الشعوب في جميع قارّات الأرض.

ولذا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما يقول إذا أردتم أن يكون وجودكم عامّاً يشمل الجميع كالسحاب والمطر والشمس والقمر، فينبغي أن تكونوا عظماء، ولكن من أين

يتأتى ذلك؟ إن العظمة والسمو من الصفات الإنسانية العالية وهي لا علاقة لها بالمال والثروة المعرّضة لأخطار الغرق والحرق والسرقة، كا لا تنشأ عن منصب اجتماعي تقرره الجهات العليا، فإذا هو عدم في لحظة ما، إن السمو والعظمة معجونتان بروح الإنسان.

إن الصراع إنما ينشأ عن محدودية في الأشياء، فعندما يزداد الطلب ويقل العرض، وعندما يكون الجوع أكثر من الطعام تنشأ الحروب والنزاعات، ويبدأ نزيف الدماء؛ وقد تنشأ الصراعات حتى مع انعدام حالة الضيق في الأشياء ومحدوديتها. ولكن الضيق هنا يكون في روح الإنسان نفسها حيث الحرص وضيق النظر، وإذ ذاك تشتد الحالة السبعية والافتراس لدى الإنسان، فنراه يندفع للإستيلاء على كل شيء انطلاقاً من حرصه فيتسبب في بؤس الآخرين غير آبه بمعاناتهم وهمومهم؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بات ولم يفكر في أُمور المسلمين فليس منهم» وقال أيضاً: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

إن الفرد ينبغي أن يكون منسجماً مع روح الجماعة فعلاً وقولاً، يفكّر في شقائهم وسعادتهم ويهتم بشؤونهم ومصلحتهم ويرى سعادته في سعادتهم وشقاءه في شقائهم.

إن هذه الأحاديث الشريفة وغيرها تعتبر من أرقى الإرشادات الإسلامية في المجال الاجتماعي؛ لقد جسّد أهل البيت النبوي ذلك في حياتهم ليكونوا قدوة وأُسوة لغيرهم؛ فقد فكّر الإمام الصادق عليه السلام وبعد أن كثر عياله في التجارة، فاستدعى مولى له يقال له (مصادف) فأعطاه ألف دينار ليتاجر بها، وقال له: (تجهّز حتى تخرج إلى مصر فإن عيالي كثروا). فتجهّز مصادف بمتاع وخرج مع التجّار إلى مصر، فاستقبلتهم قافلة من التجار خارجة من مصر فسألوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة وكان متاع العامّة فأخبروهم أنه ليس في مصر منه شيء، فتحالفوا وتعاقدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً فباعوا تجارتهم بهذا الربح ورجعوا إلى المدينة؛

فدخل مصادف على الإمام الصادق عليه السلام ومعه كيسان في كل واحد منهم ألف دينار وقال له: جعلت فداك، هذا رأس المال وهذا الآخر ربحه. فقال له الإمام: (إن هذا الربح كثير كيف صنعت في المتاع الذي اشتريته حتى ربحت هذا الربح؟) فحدّثه بحاجة البلاد إلى المتاع وكيف تحالف مع التجّار وتعاهد معهم أن لا يبيعوا ما معهم إلا بربح الدينار ديناراً. فقال الإمام: «سبحان الله تتحالفون على قوم مسلمين ألاّ تبيعوهم إلا بربح الدينار ديناراً». ثم أخذ رأس المال: وقال: «هذا مالنا» ثم ردّ عليه الربح وقال: (مصادف! مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال).

القلب السليم

قال الله في محكم كتابه: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

إن المال والأولاد زينة الحياة الدنيا، أمّا عالم الآخرة فإن السعادة تقوم فيه على أساس القلب السليم الذي لم يبتل بالأمراض النفسية من قبيل الحقد والحسد وسائر الصفات المذمومة.

القلب السليم هو القلب الذي أضاءت معرفة الله زواياه وانمحى الشكّ والشرك من طواياه، القلب الذي يؤمن بأن لهذا العالم صانع وهو الله، وإن كل شيء موجود على أساس من الحكمة. فلا وجود للعبث واللغو وإنه لا يضيع أجر المحسن كما لا تضيع عقوبة الظالم، القلب الذي يؤمن بأن الجزاء أو الانتقام قد يتأخر ولكنه قادم لا محالة.

الدنيا عالم محدود ولكن الآخرة عالم لا نهائي، الدنيا محاطة والآخرة محيطة، الدنيا عالم متغير والآخرة عالم ثابت، الدنيا عالم صغير والآخرة عالم كبير، الدنيا دار احتكاك ومواجهة وتصادم والآخرة عالم واسع مفتوح، الدنيا عالم مظلم والآخرة عالم مضيء.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٨-٨٩.

وعلى هذا فإن الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون أساساً للحياة في الآخرة، ذلك أن المحدود لا يمكنه استيعاب اللانهائي، ولكن ما ينفع في عالم الآخرة يمكنه أن يكون مفيداً في الدنيا لأن الآخرة أوسع من الدنيا فهي محيطة بها.

فالإنسان الذي يفارق الدنيا لا يمكنه أن يحمل معه من وسائلها شيئاً إلاّ قلبه السليم وتلك الصفات السامية من الإيمان بالله والمحبّة والإنصاف والعدالة والصدق والاستقامة وكل الخصال الإنسانية الطيبة التي هي أساس الحياة في عالم الآخرة، إضافة إلى كونها أساساً للسعادة حتى في عالم الدنيا.

فهل يمكن للإنسان أن يعيش راضياً مطمئناً دون أن يطهر قلبه من الشك والشرك، وأن يضيء الإيمان بالله أعماق روحه؟ وهل يمكنه أن يواجه مصاعب الحياة وتقلّبات الزمن بشجاعة؟.

يقول أحد العلماء: إن البعض يوظف عقله فيبتدع له أخلاقاً عالية تنطوي على ألوان من المشقّة والمعاناة النفسية كما هو الحال في قوانين (اليوغا) التي تفتقد روح الأمل والإقبال على الحياة، أما الأخلاق التي تنبع من الإيمان بالله الواحد فإنها تصوغ إنساناً يواجه مصاعب الحياة بروح من الأمل بالرغم من المعاناة التي تنطوي عليها.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في عهده إلى مالك الاشتر لمّا ولاّه مصر: «فاخفض لهم جناحك، وألِن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرة والمستورة، فإن يعذب فإنتم أظلم، وإن يعف فهو أكرم».

ثم يضيف الإمام قائلاً: «واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجلِ الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا بأفضل ما سُكنت، وأكلوها بأفضل ما أُكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انتقلوا عنها بالزاد المبلّغ والمتجر الرابح. أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم وتيقّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذّة»[1].

إن القلب السليم والنيّة الطاهرة هي طريق السعادة في الدنيا والآخرة، حيث ينطلق الإنسان من العالم المحدود إلى عالم لا نهائي فيبني آخرته بدنياه، فالدنيا ـ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ مزرعة الآخرة.

---

(١) نهج البلاغة/ عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر/ ٣٧.

دور العمل في الأخلاق

كان الإمام الصادق عليه السلام يعمل في حائط له وقد تصبّب عرقاً إذ مرّ به أبـو عمـرو الشيباني فظن أن الإمام إنما يفعل ذلك مضطراً وأنه لا يجد من يساعده في ذلك، فعرض عليه أن يقوم بالعمل فأبى الإمام قائلاً: «إني لأُحبُّ الرجل يحصل على رزقه بكدّ يده».

يحظى العلم بإحترام الإسلام وتكريمه لا لأنه منجاة من الفقر والجوع فحسب، بل لأنه يضفي على الإنسان الشعور بالعزّة والكرامة، وبالتالي احترام الآخـرين لـه؛ ولهـذا ينظر الإسلام إلى العمل كعامل مهم في صياغة شخصية الإنسان.

وفي مقابل ذلك فإن البطالة لها دور سلبي في سحق شخصية الإنسان أمـام نفسـه وأمام الآخرين، وبالتالي فإنها مصدر الكثير من المصائب والـويلات؛ ناهيـك عـن دور العمل في تنشيط وتنظيم الجانب الفكري وحمايته من آثار الخيـال الـشيطاني، وبالتـالي اكتساب الشخصية الإنسانية قدراً من الاستقامة والثبات؛ إضافة إلى أن للعمل دور كبير في تنظيم الاستهلاك للطاقة البدنية، الأمر الذي يؤدي إلى نـوع مـن الـصفاء الروحـي والنفسي، أما البطالة فإنها تزيد في اضطراب الـنفس واشـتداد ظلمـة الـروح وقـساوة القلب.

ولذا فلا ينبغي الغفلة عن دور العمل في تهذيب الأخلاق، وأثر البطالة في تدمير هذا الجانب من شخصية الأنسان. فماذا يعمل الإنسان العاطل غير أن يتناول لحم الموتى على حد تعبير القرآن الكريم؟.

إن الروح كالجسد تماماً تحتاج إلى الغذاء، فإذا لم يصلها الغذاء الكافي عمدت إلى أقرب الأشياء فسدّت جوعها به حتى لو كان قذراً.

ولقد رأينا في أعوام القحط والجوع كيف أكل الناس بعضهم بعضاً، الروح هي الاخرى تعاني كما يعاني الجسد، فإذا لم تشعر بالشبع والرضا والطمأنينة فإنها تبقى جائعة، وعندها سوف تتغذى بلحم أخيها المؤمن الميت كما وصف القرآن الكريم ذلك في الغيبة.

إن ظاهرة الغيبة نجدها واضحة لدى النسوة اللاتي يجلسن في بيوتهن دونما عمل، فإنهن يبدأن بانتقاص الآخرين؛ وعلى أيّة حال فإن الإنسان العاطل يصاب بمختلف المفاسد الأخلاقية والأمراض النفسية والعصبية وبالتالي يتبدد عمره دونما فائدة.

لقد سادت المجتمع الإسلامي في القرن الثاني الهجري بعض الأفكار المنحرفة التي تعتبر العمل والكد يتنافى مع التقوى والعبادة، وقد كان البعض يعيبون على الأئمة الأطهار من آل البيت عليهم السلام ذلك، عندما يرونهم يشتغلون في الزراعة أو التجارة أو حفر الآبار والعيون.

لنستمع إلى أحد اولئك الذين تركوا العمل وانصرفوا إلى العبادة وعاشوا كلاًّ على الناس، وهو محمد بن المكندر، وهو يقول: (خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة فلقيت محمد بن علي الباقر عليه السلام وكان رجلاً بديناً وهو متكئ على غلامين له، فقلت: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا؟ والله لأعظنه، فدنوت منه وسلّمت عليه فسلّم عليّ وقد تصبب عرقاً، فقلت: أصلحك الله

شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة في طلب الدنيا؟ لو جاءك الموت وأنت على هذه الحالة.

فخلّى يديه عن الغلامين ثم تساند وقال: «لو جاءني والله الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله أكف بها نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنتُ أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله». فقلت: يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني.

ضرورة إرفاق العلم بالعمل

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[1].

يمتاز القرآن الكريم بأسلوبه الخاص، فقد يخاطب الامة جمعاء عن طريق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره محدّثاً باسم الامّة ومستمعاً عنها؛ وهذه ليست قاعدة عامّة، فهناك خطاب مباشر للامة كما نرى ذلك في ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ التي يزخر بها القرآن الكريم.

وعادة ما يكون الخطاب المباشر للرسول ينطوي على هدف معين، فقد يتوهّمُ البعض في بعض الخطابات القرآنية أنها لا تشمله من قريب ولا من بعيد على أساس بعض الامتيازات العرقية أو القومية، ولهذا يخاطب القرآن الرسولَ حتى لا يكون هناك مجال لمثل هذه الأوهام.

فهنا خطاب ـ مثلاً ـ يتوعّد الرسول ويتهدده فيما إذا ارتكب معصية ما، وهنا تتبخّر جميع الأوهام والتصورات الخاطئة لدى الإنسان العاقل في أن هذا الخطاب لا يخصّه، كما هو الحال في الآية التي تصدّرت البحث ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، فالخطاب موجّه بالدرجة الاولى إلى الامة الإسلامية، وهو لا يحمل روح الإرشاد فحسب بل

---

(١) سورة طه: الآية ١١٤.

ينطوي على أمر واضح في طلب العلم من الله، وإذن فإن طلب العلم واجب كسائر الواجبات الأُخرى.

لقد قرن الإسلام العمل بالعلم وجعل له منزلة سامية وإن العمل المقرون بالعلم أعظم آلاف المرّات من العمل الذي يقوم على أساس من الجهل، ذلك أن العلم يمنح العمل قيمته، ولذا فإن كل عمل يقترن بالعلم يحظى بأهمّية بالغة.

وعلى هذا الأساس يحترم الإسلام أمرين هما: العلم والعمل، ويرفض أمرين هما: البطالة والجهل.

وهنا ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمّة وهي أن الإسلام لا ينظر إلى العلم والعمل كأمرين متمايزين منفصلين، بل إن احترام الإسلام لهما يكمن في ارتباطهما، فإذا انفصلا فقدا أهميّتهما، فهما كالجناحين يطير بهما الإنسان فإذا انفصلا عن بعضهما عجز الإنسان عن الطيران. فكل منهما يكمل الآخر، فمثل العالم المنزوي والعامل الجاهل كمثل إنسان يمتلك فانوساً في ليلة مظلمة ولكنه لا يقدر على المشي، وآخر قادر على المشي ولكنه لا يملك فانوساً يضيء له الطريق، فكلاهما عاجز عن تلمس طريقه في الحياة.

إن التعاون أساس مقدّس، ولكن لا شيء أسمى من تعاون العلم والعمل، أي أن يكون العامل عالماً ومطلعاً ويكون العالم عاملاً فعّالاً.

لقد مرّت الامم وخلال مراحل التاريخ المتعاقبة بفترات من الخمول نتيجة فصل العلم عن العمل، وكان ذلك أحد أبرز العوامل في تأخر تلك الامم واضمحلالها.

لقد قدم الإسلام للبشرية خدمات كبرى عندما جعل العمل واجباً على الجميع وجعل العلم حقّاً للجميع. ولا أظن أن أحداً له معرفة ولو بشكل إجمالي بتعاليم الإسلام يمكنه أن يشكك في هذه المسألة. فليس هناك فريق يختص بالعلم وآخر يختص بالعمل،

ناهيك عن دعوة الإسلام إلى ربط العلم بالعمل والعمل بالعلم، فالعلم توأم العلم، والعلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر، وإن العلم مع العلم أعظم بمئات المرّات من العمل وحده.

لقد تجلّى العلم كأعظم قوّة يملكها الإنسان وبواسطتها سخّر قوى الطبيعة من جماد ونبات وحيوان، وبها استكشف أعماق البحار وسبر أغوار الفضاء.

الإنسان ليس آلة يمكن حساب قوّتها على أساس قدرة البخار أو الكهرباء، كما أنه ليس حيواناً لكي يمكن معرفة قدرته كما هو الحال لدى الفيل أو الحصان. إن قدرة الإنسان تكمن في فكره وعقله، وعلى أساس هذه القدرة أمكنه صنع هذه الحضارة والمدنية الكبرى، وبها استخدم وسخّر قدرات الفيل والحصان وسائر القوى من أجله.

ولو انفصل العمل عن العلم لما أمكن للإنسانية أن تتقدّم هذا التقدّم، ولبقيت تراوح في مكانها ولما تجاوزت حدود الزراعة والرعي؛ ولكن ترافق العلم مع العمل مكّن الإنسان تحويل الموادّ الخام إلى مختلف السلع والآلات، وهذا معنى العلم الذي يرفع من قيمة العمل فيتحول إلى فن وصنعة.

يذكر سعدي الشيرازي هذه الحكاية في كتابه (روضة الورد):

كان أحد الحكماء يبذل لأبنائه النصيحة على الدوام فيقول لهم: (يا روح أبيكم! تعلموا المعرفة، إذ لا يصح الاعتماد على ملك الدنيا واقبالها، فالجاه والذهب لا يخرجان مع من ذهب، الدرهم والدينار معرضان للأخطار، فأمّا أن يسلبهما جملة قاطع طريق أو يأكلهما نهما بالتفريق، أما المعرفة فعين دائمة الجريان ودولة موطّدة الأركان، إذا زلت بصاحبها القدم لا يستولي عليه غم ولا ندم، إذ المعرفة في نفسها دولة، فحيثما حل يكون بها مرموق القدر، ولا يجلس إلاّ في الصدر، وأما عديم العرفان فحيثما حل ذليل مهان، لا ينال من الخبز كسرة ولا يعيش إلا بالحسرة)[1].

(١) روضة الورد/ سعدي الشيرازي/ ب ٧ حكاية ٢.

الصبر والظفر

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان»[1].

الظفر والنجاح هو هدف وأمنية كل إنسان، حيث يسعى الجميع للبحث عن الطريق التي تؤدي إلى ذلك.

ومن البديهي أن يسعى المرء لنيل مراده ووصل محبوبه، فهو يعيش هاجس الوصال في قلبه دائماً، كما أن فكره مشغول بالبحث عن أنجع الوسائل لتحقيق ذلك الهدف الذي يرنو إليه، ويتساوى الجميع في هذه القاعدة ولكنهم يختلفون في تشخيص السبل، فالبعض بعيدون كل البعد عن الواقع فهم يعيشون في أرض الخيال ويحاولون حل القضايا بالوهم، فهم يعتقدون بأنّ النجاح هو مجرّد حظ يصادف الإنسان، وأن كل امرئ يولد سعيداً أو شقيّاً، فمن كتبت له السعادة لن يستطيع أيٌّ شيء أن يسبب له الشقاء، ومن ولد شقيّاً لن يتمكن أي شيء أن يسبب له أو يسوق له السعادة وأن لا أثر للعلم أو الإيمان ولا العمل ولا الأخلاق في ذلك، وأنها غير قادرة على جلب السعادة له، وأن الشقاء سيلازمه ملازمة الظل حتى لو سلك الصراط المستقيم.

إن هؤلاء يظنون أن لا شيء في العالم قادر على أن يسعد الشقيّ أو يشقي السعيد.

---

(١) نهج البلاغة/ حكمة ١٥٣.

وللأسف فإن الكثير من الناس اليوم يعتقدون بذلك، ولكن أدنى تأمّل في الواقع يقود إلى اكتشاف العلّة والمعلول في الحوادث وما يدور في هذا العالم وأنه لا وجود لما يدعى بالحظ والنصيب وأن ذلك أمر خيالي من وحي الشيطان، فلا الدين يعترف بالحظ ولا منطق العقل.

إن الله لم يخلق الإنسان بذاته شقيّاً أو سعيداً، وإن بساط الحظ ليس من البياض بحيث لا يقبل السواد وليس من السواد بحيث لا يقبل البياض. إنه انعكاس لصفحة الروح والقلب وهما متغيّران بحيث يمكن أن يكونا ناصعين كالثلج أو أسودين كظلام الليل.

فالعلم والمعرفة والإيمان والتقوى والاستمرار بالعمل الصالح يصقل الروح ويجعلها برّاقة كالنور، في حين تُسوِّد بالخرافات والأساطير والفسق والفجور.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[١].

إن الإنسان مخلوق يحمل في أعماقه مختلف الإستعدادات إضافة إلى امتلاكه الحرية والاختيار، وعليه أن يكتشف طريق الحق ويميزها عن مسالك الباطل ومهاوي السقوط والإنحراف.

إن بعض الناس وخلال بحثهم عن سبل النجاح والظفر والموفقية لا يتوهمون بعامل بعيد عن أرض الواقع فيعتمدون عليه، ومع ذلك فإنهم يضيعون بين العوامل الاخرى وينسون أنفسهم، فيما تمتد أعينهم طمعاً بالآخرين، ويعتمدون عليهم في جميع شؤونهم، يرغبون أن ترافقهم توصيات الآخرين بهم؛ ومثله كحكاية ذلك الشخص الذي رأى أفعى نائمة فوق عتبة داره فقال: (يا للحسرة إذ لا يوجد رجل أو حصاة!). الشيء الذي لا يدخلونه في حسابهم هو شخصيتهم ولا يعتقدون بأن هذا المجتمع الذي

---

(١) سورة الدهر: الآية ٢.

هو في نظرهم مجتمع فاسد، لا يحترم الكمال واللياقة والكفاءة بل يعتمد التوصيات التي يصدرها بعض الأشخاص حيث ترفع شأن البعض وتحطّ من شأن البعض الآخر، لا يعتقدون بأن هذا المجتمع يضم فريقين من الناس، فريق يرفع بوصاياه وفريق آخر يرتفع بتلك الوصايا. ومع ذلك فإن عدداً لا بأس به يتمتع بالاستقلال ويمتاز بالاعتماد على نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا ينضوي الإنسان تحت لواء هذا الفريق الثالث؟ ولا يكون طفيلياً يعيش على موائد الآخرين.

إن الطريق الصحيح هو أن يعتمد الإنسان على نفسه وأن لا ينسى استعداده المخبوء في طوايا ذاته، وليعلم أن هذا العالم هو عالم الأسباب ومن الأفضل أن يعتمد الإنسان الأسباب التي تنطوي عليها نفسه.

لقد خلق الله الإنسان وجهّزه بالأشياء التي تصنع شخصيته ومن ثم تؤهله لنيل السعادة.

إن من الأُمور التي تعتبر شرطاً للنجاح والموفقية في الأعمال وخاصّةً الأعمال الكبرى هو الصبر والتحمل، وبغير ذلك لا يمكن للإنسان أن يستمر في العمل المناسب له والذي يتوافق مع استعداده وقابلياته، فيدع عمله في منتصف الطريق متنقلاً من عمل إلى عمل دون أن يصل إلى نتيجة.

إننا نرى الكثير من الأفراد الذي يمتازون بالنبوغ في مجالات عديدة لا يحقّقون شيئاً بسبب نفاد صبرهم وتنقلهم هنا وهناك، في حين نرى أشخاصاً متخلّفين عنهم في الذكاء والاستعداد ـ مثلاً: (كانوا ينالون في المدرسة أنصاف درجاتهم) ـ ولكنهم بمثابرتهم وصبرهم وتحملهم تقدّموا وشقّوا طريق رقيهم حتى نالوا إعجاب الجميع.

عندما نسمع أو نرى أحداً يخترع شيئاً مهمّاً فإن أول شيء يخطر في بالنا هو أن نقول يا له من نابغة ويا له من عقل عجيب، وكأنّ الأمر في تصوّر البعض كان حصيلة جهد عدّة ساعات أو عدّة أيّام، غافلين عن أهم شيء في ذلك وهو المثابرة والصبر، فقد

ينفق أحدهم ثلاثين عاماً من حياته في الصحارى والرمال لكـي يتوصـل إلى اكتـشاف أثريّ هام.

لا يمكن الجزم بأن المخترعين والمكتشفين يعتبرون من نوابغ عصرهم ذلك أنه قـد يوجد من هو أنبغ منهم ولكنه يفتقد ميزة الصبر.

إن الصبر هو رفيق النجاح القديم، وكما يقول المثل: (من صـبر ظفـر). إن الـصبر وحده كفيل بأن يوصل الإنسان إلى تحقيق هدفه حتى ولو إلى حين، وكما قـال الإمـام علي عليه السلام: «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان».

الإختيار ميزة الإنسان الكبرى

يقول الحكماء والفلاسفة أن الإنسان حيوان اجتماعي، وهذه الكلمة ليست بسيطة بل إنها تنطوي على عالم زاخر بالمعاني، ومعنى ذلك لا ينحصر في رفقة سفر أو جلسة سمر بل يمتد ليشمل كل نواحي الحياة وفي تحمل الأعباء، ولهذا تسنّ القوانين وتنظم المعلومات والصناعات والفنون والأخلاق الاجتماعية وتبذل المحاولات لإرساء العدالة والإنصاف والتضامن.

يقوم البنّاء بوضع الحجر فوق بعضه ثم يستخدم الطين كملاط ويستفيد من الحديد كمساند فينهض البناء ويمسك بعضه بعضاً في نوع من التعاون، فهل إن التعاون بين أفراد النوع البشري بهذا المستوى من البساطة؟ وعلى مستوى أرقى من ذلك فإن بعض الحيوانات كالنحل وبعض الحيوانات المفترسة تعيش على شكل جماعات وقد قسمت الأعمال فيما بينها بشكل يدعو إلى الحيرة والإعجاب، حتى أن بعضها ليفوق الإنسان دقّة ونظاماً، ومع كل هذا فإن حياة الإنسان أرقى بكثير بل لا يمكن مقارنتها بحياة تلك الحيوانات. لماذا؟ الجواب إن كل ذلك النظام الذي يسيّر حياة الحيوان إنما ينبع من الغريزة، فكل ما تقوم به الحيوانات من وظائف وأنشطة هو من وحي الغريزة تماماً، كما هو الحال في أعضاء البدن كحركة الدم أو خفقان القلب، فهناك نوع من الجبر والتسيير الصارم الذي لا يقبل المعارضة؛ أما الإنسان فإنه يمتاز بالحرية والاختيار، ولذا يتوجب

توزيع الأعمال بين الأفراد ولكن عن طريق الانتخاب والتشخيص وسيادة نوع من النظام في ذلك. وهنا يكمن الفرق الكبير بين الإنسان والحيوان، ذلك أن الإنسان يواجه طريقين أو يقف على مفترق طريقين حيث يتوجب انتخاب أحدهما، أمّا الحيوانات الاجتماعية من قبيل النمل والنحل فإنها لا تمتلك ولا تعرف سوى طريق واحد وهو الغريزة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1] والنجدان هنا يعبّران عن طريقي الحق والباطل، طريق يأخذ به نحو قمة الجبل، وطريق ينحدر به نحو الهاوية ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[2].

وهذا هو امتياز لإنسان على غيره، وعلى هذا ينهض القانون والأخلاق ومن هنا تنطلق رسالات الأنبياء وكتب السماء لتوضيح الأمر ووضع الحقيقة أمام الإنسان كما تصرّح بذلك سورة الحجّ المباركة حيث تبيّن عواقب ونتائج كلا الاختيارين.

إن الهدف من وراء بعثة الأنبياء وإنزال كتب السماء هو إقرار التوازن في المجتمع البشري وإرساء قواعد العدالة فيه، ذلك أن الحرية التي يتمتع بها الإنسان قد انتجت كمّاً هائلاً من القوانين والآداب والسنن المتناقضة جعلت الإنسان بحاجة إلى توجيه وإرشاد.

ولو كان الإنسان كسائر الحيوانات الأُخرى يسير وفق ما تمليه غريزته، ويستجيب لوحيها كدقات القلب وحركة الدم وإيعاز العصب وكما تقوم به الأنسجة والعظام من وظائف، لما احتاج المجتمع البشري إلى قوانين تنظم حياته ولما ترتب على عمله ثواب ولا عقاب ولما كان مورداً للخطاب.

(١) سورة البلد: الآية ٨-١٠.
(٢) سورة الدهر: الآية ٢-٣.

إن هذه الحاجات إنما نجمت عن الحرية والإختيار اللّذين يمتاز بهما الإنسان وهذه الحرية هي التي رفعته فوق مصاف الملائكة، ذلك أن الملائكة لا يتمتعون بهـذا الامتيـاز ولا يعرفون سوى طريق واحد فقط هو العبادة والطاعة.

أما الإنسان فهو وحده الذي يمكنه أن يحلّق في سماء الكمال حيـث المـلأ الأعلـى ويمكنه أن ينحطّ إلى أسفل سافلين حيث الاستغراق في المادّة.

وكل هذا يتوقف على إرادته وتصميمه في الإختيار أو الإنتخاب.

نعمة الكلام

إن كل نعمة إلهية مهما كان حجمها تستوجب الشكر لله، ومعنى الشكر هنا هو ليس كما يقوم به بعض المتملقين من التلاعب بالألفاظ، إذ ينبغي أن يكون في داخل القلب إحساس بالشكر والامتنان، هذا أولاً، وثانيا أن يكون هذا الشكر متوجهاً للذات الالهية المقدسة وهو الله الصمد الذي لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد. فلا الشكر باللسان ولا الامتنان في القلب يمكنه أن يقدم شيئاً لله سبحانه وتعالى.

إن شكر النعمة في الواقع هو أن نعرف واجبنا تجاهها، ومن ثم أداءنا لذلك الواجب. إن واجبنا تجاه كل نعمة من نعم الخالق يعني الاستفادة من تلك النعمة بالشكل المعقول والمناسب في إطار «التكليف» وتحت عنوان «أداء الواجب».

فاللسان والقدرة على الكلام واحدة من نعم الله الكبرى التي وهبها للإنسان، حتى أن الفلاسفة اعتبروا أن ميزة الإنسان الوحيدة عن الحيوان هي القدرة على البيان والكلام إذ يعتبر ذلك مظهراً من مظاهر الإدراك وممثلاً عن الفكر والعقل.

يقول القرآن الكريم: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1] وعلى أساس هذا تمكن الإنسان من إبراز ما يختلج في باطنه من معانٍ ونقلها للآخرين وللأجيال، ولولا ذلك لما أمكن الإنسان أن يحيا حياته الاجتماعية.

إن هذه النعمة تستوجب الشكر؛ الشكر الذي يتجلّى في استخدام اللسان في التعبير عن الحق والحقيقة وتجنب الكذب والغيبة النميمة.

لقد خلق الله الإنسان ليكون داعياً إلى الحق وهادياً إلى الصراط المستقيم، لا وسيلة للخداع والضلال والضياع والنفاق.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن من عزائم الله في الذكر الحكيم، التي عليها يثيب ويعاقب ولها يرضى ويسخط أنه لا ينفع عبداً ـ وإن أجهد نفسه وأخلص فعله ـ أن يخرج من الدنيا لاقياً ربه فيما افترض عليه من عبادته أو يشفي غيظه بهلاك نفس أو يَعُرّ بأمر فعله غيره، أو يستنجح حاجة الناس بإظهار بدعة في دينه أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين».

وفي مناسبة اخرى يقول عليه السلام: «ولقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني لا أخاف على امّتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأمّا المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عليم اللسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون».

(١) سورة الرحمن: الآية ١-٤.

فالمنافق ظاهره حمل وديع وباطنه ذئب كاسر. إن هذا اللسان الذي هو نعمة من نعم الله يمكنه أن يكون أكبر الكبائر عندما يكون وسيلة للكذب والنفاق والبهتان والغيبة وغير ذلك.

كما يقول عليه السلام في دعاء له: «اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني، فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة. اللهم اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاءً عندي. اللهم اغفر لي ما تقرّبت به إليك بلساني ثم خالفه قلبي. اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ وسقطات الألفاظ وشهوات الجنان وهفوات اللسان».

دور العمل في هداية الإنسان

جاء في الحديث الشريف: «كونوا دعاة بغير ألسنتكم».

بالرغم من امتلاك الإنسان لملكة الفكر واستقلاله في التفكير إلا أنّه يقع تحت تأثير الآخرين بشكل أو بآخر.

عندما نريد أن نسوق قطيعاً من الخراف من هذا الجانب إلى الجانب الآخر من الطريق فإننا سنواجه مصاعب في البداية ذلك أن أيّاً منها لا يملك الاستعداد لعبور الطريق وحده، إذ ينبغي سوق واحدة أو أكثر من تلك الخراف وإرغامها على عبور الطريق وبهذا يندفع القطيع نحوها.

إن هذه الظاهرة التي نشاهدها في الخراف نلاحظها في سلوكنا نحن البشر، حيث نرى القسم الأعظم من أعمالنا وحركاتنا وعاداتنا تنشأ عن التقليد واتباع الآخرين دون الالتفات إلى نوع العمل، خيراً كان أم شرّاً؛ ولهذا يقطف الرائد لفعل الخير ثوابه وثواب من سار عليه، ويحصد الرائد لفعل الشر جزاءه وجزاء من سار عليه.

وما دامت هذه الظاهرة موجودة في حياة المجتمع فما أحرى بأولئك الذين يرغبون بفعل الخيرات أن يستفيدوا منها ويكونوا أُسوة وقدوة لغيرهم فيعبّدون طريق الخير والصلاح أمام الناس ويكونوا هداة وأدلاّء لهم.

هناك طريقان لهداية البشر، الأول: طريق التحدث إليهم أو الكتابة لهم والطريق الآخر هو الريادة، ولا يمكن باي حال من الأحوال أن تنافس الخطابة أو الكتابة الريادة في عمل الخير تأثيراً في الناس. وقد قال العظماء: (مئات المقالات لا تساوي نصف عمل).

إن الفرق بين الفلاسفة والأنبياء في هذا المجال أن الفلاسفة يتحركون ضمن إطار الحديث والكلام والنظريات فقط، أما الأنبياء فهم وقبل أن يقولوا شيئاً فإنهم يجسّدونه في أعمالهم، وبهذا ينفذون إلى قلوب الناس ويمتلكون عواطفهم. فالكلام لا يمكنه أن يتعدى في التأثير الآذان، ولكن العمل أمواج تتردد في أعماق الروح وتنعكس في طوايا القلب.

إن الحديث الذي يرافقه إيمان واعتقاد لابد وأن يفعل فعله في الروح ومن ثم يترك أثره على الجوارح فيتجسد على شكل عمل. لقد كان الأولياء يدعون الناس إلى الله بأعمالهم لا بكلامهم فقط.

من السهل جدّاً أن نتحدث عن الحق والعدالة والكرم والتقوى والتسامح والحرية والفداء وأن نستغرق في وصفها والتعمق في بحثها ولكن من الصعب جداً أن نجد ذلك مجسّداً في امثلة حيّة؛ أن نجد إنساناً عادلاً أو حراً أو متسامحاً أو مضحّياً: وقلّما نجد من يتأثر لحديث أو مقالة ولكن الإنسان ينحني إجلالاً أمام من يجسد قيمة من تلك القيم التي يتعاطف معها، وهذا هو السر في بقاء تعاليم الفلاسفة والحكماء محصورة بين طيّات الكتب في حين تدوي تعاليم الأنبياء في الخافقين ولا زلنا نشهد بأم أعيننا آثار النبوات بالرغم من تعاقب العصور.

إن الحديث وحده والكلام لا يمكنه أن يفعل ذلك أبداً وإن أمواج الكلام محدودة المدى والأثر.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف».

فالحديث عن الأمانة والصدق والاستقامة والبحث في ذلك من أيسر الأمور وأسهلها ولكن العمل بها هو من أصعب الامور، ذلك أنها تضع على المحك.

يقول عليه السلام: «إني لا أحثّكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها».

ويقول أيضاً: «من نصب نفسه إماماً للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدّبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم».

الروح الاجتماعية لدى المؤمن

سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه: أيّ عُرى الإسلام أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحجّ والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وتوالي أولياء الله والتبري من أعداء الله»[1].

من الممكن أن يؤدّي الإنسان فريضة الصلاة كشكل من أشكال العادة وهكذا بالنسبة للصيام أو الزكاة أو الحج، وقد تدفعه روحه الحماسية إلى الجهاد فيجاهد، ولكن المحك الحقيقي لجوهر الإنسان إنما يمتحن في ولائه وعدائه ومدى انطلاقهما وبواعثهما وهل هما ناجمان عن الحب في الله أو البغض فيه إذ لا يمكنهما أن يكونا عادة من العادات.

وقد ورد في الأخبار والروايات أن أقل حقوق المؤمن أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لها، أي أن تضع نفسك مكانه فتتمنى له ما تتمنى لنفسك فإن كان طبيباً وراجعه مريض شعر الطبيب بأنه هو المريض فيقوم بعلاجه ومداواته كما لو أنه

---

(١) بحار الأنوار ج٦٩/ص ٢٤٣.

يداوي نفسه ويعالج جسمه، أو كان يعمل في مؤسسة فيعامل المراجعين كما لو أنه واحد منهم، ينجز معاملاتهم ويلبي حاجاتهم ويسرع في ذلك متصوراً أن المراجع هو نفسه أو أخ له أو أب أو ابن فلا يثور في وجوههم ولا يؤخر أعمالهم ولا يغشهم، وإذا كان يعمل في مصنع ينتج ألبسة أو أطعمة للناس تصور أنه سوف يحملها إلى منزله، فيجهد نفسه في إنتاجها ودقّة صنعا.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر».

إن الجسم يعيش حالى من التضامن بين أعضائه، أما الجماد أو الميت فلا يعيش مثل هذه الحالة. والمجتمع بدورة يعيش نفس هذه الظاهرة فغن كان هناك نوع من التضامن والتكافل بين أفراده كان مجتمعاً حيّاً تنبض في أعماقه الروح الاجتماعية بالمحبة والتآلف وإلاّ فهو مجتمع ميت.

أصاب المدينة المنورة قحط شديد فأرسل الإمام الصادق عليه السلام وراء غلام له يقال له معتب وسأله وقد تزايد السعر بالمدينة: كم عندنا من طعام، فقال معتب: عندنا ما يكفينا شهوراً كثيرة. فقال الإمام: «أخرجه إلى الناس وبعه». فقال معتب متعجباً: وليس بالمدينة طعام!! فكرر الإمام أمره قائلا: بعه. فلما باعه معتب قال الإمام الصادق عليه السلام: «اشتر مع الناس يوماً بيوم. ثم قال: اجعل قوت عيالي نصفاً شعيراً ونصفاً حنطة فإن الله يعلم أني واجد أن اطعمهم الحنطة على وجهها ولكني أحب أن يراني قد أحسنت تقدير المعيشة»[1].

وهذا هو معنى الروح الاجتماعية التي تحيا بها المجتمعات الإنسانية عندما تربط أفرادها روح المحبة والتضامن والإخاء تماماً كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «فإن الله يعلم

---

(١) بحار الأنوار ج٤٧/ ص٥٩.

أني واجد أن أُطعمهم الحنطة على وجهها ولكني أُحب أن يـراني قـد أحـسنت تقـدير المعيشة».

أسأله تعالى التوفيق في ذلك وأن يستلهم مجتمعنا تلك القيم السماوية السامية وأن تشيع فيه الروح الاجتماعية.

رعاية الجوانب الأخلاقية في الإنفاق

ورد في التاريخ أن أمير المؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر، فقال رجل لأمير المؤمنين: يكفيه حفنة من التمر فقال الإمام عليه السلام بغضب: (لا كثّر الله ضربك أُعطي أنا وتبخل أنت).

إذ ليس من السخاء أن يسألك أحد فتعطيه لأنه إذا سألك فقد أعطاك ماء وجهه. السخاء أن يجود المرء بماله دون سؤال أي يجنب المحتاج ذل السؤال.

إن من يبخل على إخوانه المحتاجين ثم يقول في صلاته: (اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات) فهو كاذب، ذلك أن من يبخل على أخيه بالدينار والدرهم كيف يسخو عليه بالجنة والمغفرة.

تتحدث سورة البقرة عن الإنفاق في العديد من الآيات حيث يولي القرآن الكريم أهمية بالغة لرعاية الجوانب الأخلاقية في الإنفاق، فقد يكون في غياب ذلك أضرار كثيرة تذهب بالفوائد المرجوّة من وارء الإنفاق.

أما الجوانب الروحية والأخلاقية التي ينبغي رعايتها فبعضها يتعلق بشخص المنفق وبعضها يرتبط بالفقراء والمحتاجين ممن ألجأتهم الضرورة إلى أن يمدوا أيديهم لطلب الغوث والمساعدة. فيما يتعلق بالمنفق أن يكون إنفاقه خالياً من الرياء وأن يكون عمله تعاطفاً خالصاً مع المنكوبين والمحتاجين ونابعاً من الإيمان والضمير ومصداقاً للحديث

الشريف: مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى.

إن العمل الذي ينبعث من وراء الرياء تكون أضراره أكثر من فوائده، كما أن القرآن الكريم كثيراً ما يقرن الإنفاق بالهدف وهو أن يكون في سبيل الله، أن يكون الإنفاق من أجل رضا الله لا من أجل الجاه أو الاستجابة لبعض الاهواء النفسية؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى ينبغي على المنفق أن لا يسحق الطرف الآخر نفسياً وروحياً. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾(١).

لقد كان أئمّتنا الأطهار ينفقون أموالهم سرّاً لكي يصونوا المحتاجين والمساكين وأهل العوز من شعورهم بالذلّة والمهانة. وهكذا تكون آثار تلك الأعمال مضاعفة؛ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

الجدب الروحي والفكري

في السنة العاشرة من الهجرة أي قبل رحيل الرسول بعام واحد توجّه الإمام علي عليه السلام نحو اليمن مع بعض الصحابة، وذلك بأمر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً وبرزت الحاجة إلى من يعلّمهم أحكام الدين وتعاليم الإسلام ومحو ما تبقّى من آثار الوثنية في نفوسهم وقلوبهم. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لعلي فيما أوصاه به: «لأن يهدي الله بك أحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس».

قال تعالى في أوّل سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

والمراد من الإنفاق في بعض ما ورد من الروايات إنفاق العلم ونشره بين الناس، وهناك أحاديث تعبّر عن هذا المعنى أو تشير إليه من قبيل أن نشر العلم أفضل من إنفاق المال، وأنه لا هدية أغلى من أن يتحف المرء صديقة بحكمة يرشده بها إلى غير ذلك من الاحاديث والروايات التي تعكس مدى اهتمام الدين بهذا الجانب، ذلك أن الإسلام يرى الجدب أو الفقر الروحي والفكري أسوأ من الفقر الاقتصادي.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢-٣.

فالعوز المالي يمكن جبرانه وعلاجه ولكـن الفقـر الروحـي يـؤدي بالإنـسان إلى الشقاء حتى لو كان غنيّاً.

ونحن هنا لا نحاول أن نحمد الفقر والعوز، بـل نؤكّـد علـى أن الفقـر لا ينحـصر بالجانب الاقتصادي فقط، إذ أن هناك ما هـو أخطـر مـن ذلـك وهـو الفقـر في الفكـر والروح.

ولعل اهتمام الإنسان في هذا الجانب من الفقر يعود إلى معاناته والآلام التي تـنجم عن العوز المادي خلافاً للفقر الروحي والمعنوي الـذي لا يمكـن الـشعور بـه مـن قبـل الإنسان الفقير في هذا الجانب، بل إن الآخرين ـ خاصة اولئك الذين يتمتعـون بـالثراء الروحي والفكري ـ هم الذين يدركون مدى فقر الإنسان في هذه الناحية.

ولذا نرى الأنبياء ومن سار على خطاهم منذ فجر التـاريخ يؤكـدون علـى رفـع العوز الروحي والمعنوي، ذلك أن الفقر الاقتصادي أمر يدركه الناس كافّة ولا يحتاج إلى من ينبههم إليه.

قال تعالى وهو يعدد النعم التي انعم بهما على نبينا الأكـرمﷺ: ﴿أَلَـمْ يَجِـدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

ويقول الإمام عليعليه السلام: «إن للجسم سـتة أحـوال: الـصحة، والمـرض، والمـوت، والحياة، والنوم، واليقظة. وكذلك الروح فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شـكّها، وصحّتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها»[2].

---

(١) سورة الضحى: الآية ٦-١١.
(٢) بحار الأنوار ج٦١/ ص٤٠.

وكل امرئ يحسن إلى غيره يكون له نوع من السيادة حيث يشعر الطرف الآخر بأنه قد تفضل عليه فيكون له حق الاتباع والاحترام فكيف إذا كان الإحسان علماً وهداية وإرشاداً؟!

يقول الإمام عليه السلام: «من علّمني حرفاً صيّرني عبداً».

لقد كان السيد الرضيّ العالم الكبير الذي جمع نهج البلاغة مشهوراً بعزّة النفس وقد عرف عنه رفضه الهدية من أي كان حتّى أنه رفض هدية قدّمها له والده! فصادف أن أحد أساتذته قدم له كتاباً هدية فرفض قبول ذلك قائلاً: إني لا أقبل هدية حتى من أبي، فقال الاستاذ: ولكن مقام المعلم أعلى من مقام الوالد. وأمام هذا المنطق والدليل القوي رضخ الشريف الرضي وأخذ الهدية.

إن العلم في ذاته شرف وتعلّمه عبادة وطاعة، ونشره أسمى من العبادة وأنّ حق المعلم والمرشد أعلى وأسمى بكثير من كل ذلك.

الفقر المعنوي

في حديث للإمام الحسن عليه السلام: «عجبت لمن يتدبر أمر دنياه ولا يتدبر أمر دينه».

إن الإنسان ليهرب من الفقر والعوز، فإذا شعر أن هناك نقصاً أو عوزاً في زاوية من زوايا حياته سارع إلى رفع ذلك العوز وسدّ ذلك النقص، فالفقر والعوز المادي واضح ملموس سهل الإدراك ولكن العوز الروحي والفقر الفكري على العكس من ذلك تماماً.

فالافتقار إلى المال مثلاً أمر يدركه ويلمسه الجميع ولهذا يحاول المرء ويسعى لمواجهة الفقر وقد يصل الأمر بالإنسان إلى الإسراف والإفراط في ذلك فيصاب بالحرص والطمع مما يترك آثاراً سلبية على المجتمع. كما أن الفقر يؤثر بشكل أو بآخر على مركز الإنسان الإجتماعي ولهذا فهو يسارع إلى تعزيز وضعه من خلال ذلك، وهذا الأمر ينسحب على مظهر الإنسان الخارجي أيضاً..

ولكن الإحساس بالفقر الروحي والافتقار إلى الأدب في المعاشرة والتربية في السلوك أدنى بكثير، فالإنسان الذي يعاني من فقدان الأدب والأخلاق الإنسانية والتربية الاجتماعية لا يدرك ذلك خاصّة إذا كان ذلك مترسّخاً في أعماق روحه، وبعبارة اخرى إذا كان ذلك قد أصبح لديه ملكة من الملكات. وإن كان ذلك الطراز من الأخلاق شائعاً في المجتمع فإن الأمر هنا ينقلب إلى استحسان ودفاع.

كذلك الإنسان الفقير علمياً وفكرياً فإنه لا يدرك جهله أبداً، والسبب كما قلنا يعود إلى أن الإنسان يهتم بطعامه وشرابه في حين يهمل جانب الفكر والعلم وهذا منتهى الجهل.

إن أول العلم هو الإحساس والشعور بالفقر في هذه الناحية أي أن يحس الإنسان بالعوز العلمي فيسارع إلى رفع ذلك العوز، وكلما تقدم في العلم شعر بالجهل أكثر، حتى إذا أصبح حكيماً أو فيلسوفاً إذا به يقول: (لقد أنفقت عمري في طلب العلم ليل نهار فعلمت أخيراً بأني لا أعلم أبداً).

ولعل من أعظم الأشياء المؤثرة في حياة الإنسان والتي تعود عليه بالنفع الكبير هو الإحساس بالفقر العلمي والشعور بالجهل لأن ذلك يؤجّج في روح الإنسان حالة التعطّش في طلب العلم، كما يؤجّج الحرص جذوة الأندفاع في طلب المال والثراء.

لقد سجّل التاريخ حكايات عجيبة عن بعض الناس الذين اشتهروا بالحرص والطمع وكانت مواقفه تبعث على الحيرة في ذلك، ونظير هذه الحكايات نجد أعجب منها لدى أولئك الذين تأجّجت في نفوسهم جذوة طلب العلم؛ فهذا أبو ريحان البيروني العالم الرياضي والفيلسوف الكبير نراه وهو على فراش الموت يعيش لحظات عمره الأخيرة إذا به ينتهز وجود أحد الفقهاء الذين حضروا لعيادته فيثير مسألة فقهية بالرغم من وضعه الصحّي المتدهور. وإذا بالفقيه يقول متعجّباً: وهل هذا وقت السؤال والبحث العلمي؟! ولكن البيروني يجيبه قائلاً: أن أعرف جواب هذه المسألة ثم أموت أفضل من أن أموت وأنا جاهل بها.

إن العلم والفكر هما غذاء الروح وإن على الإنسان الذي يفكر بتأمين طعامه وشرابه أن يفكّر أيضاً بغذاء يشبع روحه، فهذا الإهتمام في جانب الجسم ينبغي أن يقابله اهتمام في جانب الروح حتى أن أحدهم يتساءل: لماذا لا يمد الناس أيديهم إلى الطعام في الظلام حتى يحضروا سراجاً يعينهم على تمييز ما يدخل إلى جوفهم، ولكنهم إذا جلسوا إلى مائدة الفكر لم يفكروا بسراج العقل ليبصروا ما يدخل رؤوسهم؟!

فكما أن الغذاء بعضه ينفع البدن وبعضه يضر، بعضه منشّط وبعضه يبعث على الضعف، كذلك الفكر يختلف في قيمته العلمية ويتفاوت في مستواه، بعضه يقوي الروح وبعضه يضعفها، بعضه يبعث الأمل في النفس والآخر يبعث على اليأس والقنوط، بعضه شفاء وبعضه داء.

فالتعاليم الدينية ـ مثلاً ـ تبعث الأمل في النفوس وتجعل للحياة قيمة سامية وتدفع الإنسان إلى التفكير في مصير الآخرين، في حين أن هناك تعاليم تبعث اليأس في النفس وتشوه معنى الحياة في الروح باعتبار أن الوجود الإنساني هو مجرد عبث وأن الحياة لا معنى لها أبداً، وبالتالي تصنع إنساناً متشائماً ينظر إلى الحياة من وراء منظار أسود.

إننا نقرأ الحوادث اليومية التي تطالعنا بها الصحف، فنجد أخباراً مروعة عن انتحار بعض الشبّان أو بعض حوادث القتل، وعندما نتمعن في حيثيات تلك القضايا نجد بعضها يعود إلى ملل من الحياة وشعور باليأس والقنوط، ولو بحثنا في جذور ذلك لوجدنا أن هناك بعض الكتب التي تتضمن أفكاراً خطرة تكرس اليأس في حياة الإنسان قد سممت أفكارهم ودفعتهم في طريق اليأس والجريمة والإنحراف بعد أن قتلت في نفوسهم الأمل ودمّرت في أرواحهم التفاؤل.

لو أن أحداً تناول مرطبات مسمومة مثلاً لظهرت أعراض السم بعد لحظات أو ساعات، ولنقل فوراً إلى المستشفى لعلاج حالة التسمم هذه ولتعرض بائع المرطبات إلى ملاحقة القانون، ولكن الكثير يطالع الكتب المترعة بالسموم الفكرية التي تشلّ الروح وتسممها دون أن ينبههم إلى ذلك أحد ودون أن يتدخل مسؤول لإيقاف خطر كهذا.

فمن يبيع أغذية مسمومة يتعرض إلى ملاحقة القانون لإيقافه عند حده، أما أولئك الذين يبيعون أفكاراً مسمومة خطرة تدمّر العقل وتنشر السم في أعماق الروح فهم في منأىً من ذلك؛ وإنه لأمر عجيب حقّاً! والأعجب من ذلك أن بعض تلك

الأفكار المسمومة تختبئ وراء واجهة دينية أو تتخذ لها صبغة مذهبية، وفي هذا ما يضاعف خطرها مئات المرات.

إن تاريخنا ليزخر بالكثير من الأفكار المسمومة التي اتخذت لها أشكالاً دينية وأصبحت متداولة في أسواق الفكر دون أن ينتبه إلى زيفها أحد، فهل هناك من يصدّق أن ما نراه اليوم من خمول وجمود وكسل هو نتاج تلك الأفكار؟!.

لابد وأنكم سمعتم بأن القانون الإسلامي يحرم نشر وبيع ومطالعة كتب الضلال، وقد يبدو هذا الأمر عجيباً في نظر البعض، ولكن أليس هناك من تتسمم روحه بمثل هذه الكتب، وإذا كان البعض يعتبر ذلك منافاة للحرية فإن القليل من التأمل سيجعلهم لا يعتبرون ذلك الإجراء معقولاً فحسب بل وضرورياً.

إن كتب الضلال يعني تلك الكتب المنحرفة، وإذا كان هناك من يتساءل عن المقياس في ذلك، فالجواب هو من خلال الآثار التي يتركها الكتاب في روح القارئ، تماماً كما يترك الطعام أثره في الجسم، فالغذاء الفاسد يسبب انحرافاً في صحة الجسم، وكذا الفكر الفاسد يسبب هو الآخر انحرافاً في سلامة الروح. فالكتب التي تستهدف القضاء على العفّة والخلق والإيمان هي كتب ضلال وانحراف، وهذا الأمر ينسحب على المحاضرة والفيلم، فهناك أحاديث مسمومة وهناك أفلام ضالّة، وعلى المرء أن يتفحص في كل ذلك كما هو الحال في تخيّر الأطعمة المناسبة لجسمه وبدنه.

وعلى المسؤولين الالتفات إلى هذه المسألة وأن لا يحصروا اهتمامهم في صحة البدن، بل أن يهتموا ـ أيضاً ـ بصحّة العقول وسلامة الأرواح. إن هذه المسؤولية هي في أعناق الجميع لأن المسلم أخو المسلم، وكل مسلم مسؤول عن مصير وسعادة أخيه، مسؤول عن مراقبة الأفكار التي ترد عقله وروحه.

التعصب الباطل

ينقل القرآن الكريم عن بعض الناس الذين اعتبروا نزول القرآن كارثة بالنسبة لهم، بل إنهم طلبوا من الله أن يرميهم بحجارة من السماء إذا كان ذلك حقّاً. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

إنه لأمر عجيب حقّاً أن تصل الحالة بالإنسان أن لا يتحمل الحقيقة بل يشعر بالمرارة تجاهها ويعتبر نفسه نقيضاً لها وإن في وجودها هلاكاً وفناءً له، في حين ينبغي أن يكون العكس، وأن يكون الحق والحقيقة هدف الإنسان المنشود، ولكننا نرى الإنسان يتمنى الموت على أن لا يواجه الحقيقة.

إننا نسمع في بعض الأحيان من يقول: إن فلاناً قد واجه الحقيقة المرّة، وهنا نتساءل هل يمكن أن تكون الحقيقة مرّة؟ أليس الإنسان مجبولاً على حب الحقيقة فلماذا تكون مرّة في رأيه؟.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.

الجواب: إن الأشياء لا تحمل في ذاتها الحلاوة أو المرارة، الجمال أو القبح، العطر أو النتن. إنها مجرّد أشياء توجد في أذهاننا فقط ولقد فطرنا الله عليها بحساب وقدر. إن حلاوة الأشياء ومرارتها، قبحها وجمالها، عطرها ونتنها إنما ترتبط ببناء أجسامنا، فالبعض يتذوق العسل وحلاوته في حين يتذوق البعض الآخر في العسل طعم المرارة، وهذا ما نراه لدى بعض المرضى، فمن يعتبر الحقيقة حلوة لذيذة هم الأشخاص السليمون روحياً، الذين ينشدون الحقيقة ويبحثون عنها، بينما يتمنى البعض الموت على أن لا يواجه الحقيقة التي يستشعر فيها المرارة.

سئل الإمام علي عليه السلام عن معنى الإسلام فأجاب: «الإسلام هو التسليم». وهي عبارة زاخرة بالمعاني فالإسلام يعني التسليم للحقيقة، تلاشي العناد والتعصب وهزيمة اللجاجة أمام الحق.

يقول الإمام علي عليه السلام: «الحكمة ضالّة المؤمن»؛ وهذا تصوير دقيق لحالة الإنسان المؤمن فمن أضاع خاتمه تراه دائم البحث عنه فإذا عثر عليه سارع إلى التقاطه، وإذا كان هناك من يمنع ذلك طالب به.

المؤمن لا يهمه مكان الحقيقة؛ لاذي يهمه فقط هو الحقيقة ذاتها. لا يهمه أن يكون الكنز لدى القريب أو البعيد وأن صاحب الكنز أسور أم أبيض الذي يهمه هو الكنز هل هو حقيقي أم لا!

في صدر الإسلام، وعندما كان المسلمون يتبعون تعاليم الدين الحنيف كانت الحقيقة هي همهم الوحيد، ولذا نجد حلقات الدرس في ذلك الوقت تتألف من العربي والإيراني والهندي والقبطي والبربري. وكثيراً ما نجد أن العرب كانوا يتتلمذون على أيدي أساتذة أيرانيين، وبالعكس. بل إننا نجد ما هو أسمى من ذلك حيث نجد الاساتذة من دين آخر فالطب ـ مثلاً ـ كان يدرّسه أساتذة غير مسلمين وكان المسلمون يقبلون على تعلّم هذا العلم بشغف وشوق ولا يهمهم انتماء الاستاذ.

ولو كان التعصب مستشرياً في ذلك الوقت لما تقدّم المسلمون في مجـالات الفلـسفة والطب وغير ذلك من العلوم.

ولقد هاجم الإمام علي عليه السلام الروح العصبية في خطبة مشهورة وذمّها قائلاً: «فـإن كان لابد من العصبية فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسـن الأُمـور، التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العـرب ويعاسـيب القبائـل... فتعـصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر، والمعصية للكـبر، والأخـذ بالفضل، والكفّ عن البغي»[١].

(١) نهج البلاغة/ القاصعة.

عوامل الإنحسار

في تأثير التعاليم الدينية (١)

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾[١].

تصادف الليلة ذكرى رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وكذلك ذكرى استشهاد سبطه الحسن بن علي عليه السلام. وفي هذه المناسبة أتقدّم للحضور بأحرّ التعازي.

حديثنا هذه الليلة حول انحسار تأثير التعاليم الدينية في النفوس والعوامل التي تقف وراء ذلك.

إن معرفة مثل هذه الأمور في غاية الضرورة، فلا يمكن اكتشاف الدواء دون معرفة الداء، وما لم نعرف الأسباب التي تؤدي إلى تراجع تأثير الدين في النفوس لا يمكننا الاستفادة من بركة الإسلام والتزوّد من نبعه الصافي.

كلنا يعرف أن من أهم الظواهر التي لفتت أنظار الباحثين والمؤرخين وأثارت إعجابهم هو انتشار الإسلام بتلك السرعة المذهلة في العصر الأوّل من ظهوره.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

فلقد أحدث الدين الجديد ثورة في النفوس وغطى مساحة واسعة من الأرض في مدة زمنية وجيزة، وبلغ من عمق تأثيره حداً جعله ثابتاً رغم كل الحوادث والتقلبات التي أعقبت رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة في سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.

ولكن شيئاً فشيئاً تراجع تأثير الدين في النفوس وبدأ يتقهقهر يوماً بعد آخر، ولو قارنّا ذلك مع الوضع في الوقت الحاضر لكان الفرق مابين الثرى والثريا، وهذه الظاهرة تثير التساؤل: تُرى ما هو السبب في ذلك؟.

قد يظن البعض متوهماً بأن عصر الدين قد ولّى وأن روح ذلك العصر كانت توجب على الناس الإنقياد والإنصياع لتعليمات الدين، أما العصر الحاضر فله روحه التي توجب التحرر من الدين والإيمان بشيء آخر.

إنّ هذا الكلام يقنع اولئك الذين ينظرون إلى الدين كوسيلة حياتية يمكن استبدالها بوسيلة أُخرى أكثر تطوّراً؛ غير أن الدين هو جوهر الحياة نفسها لا وسيلة من وسائلها يمكن استبدالها بأُخرى.

لقد أثبت كبار العلماء الذين تعمّقوا في دراسة الطبيعة البشرية والروح الإجتماعية بأن الدين جزء لا يتجزّأ من طبيعة الإنسان.

هناك بعض (المتدينين) يعتقدون بأن السبب في انحسار التأثير الديني يعود إلى أن الدين يقف حائلاً دون استمتاع الناس بالملذّات، وفي هذا العصر المليء بالشهوات، من الطبيعي أن يُعرض الناس عن الدين، أمّا في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث الشهوات والملذّات معدومة أو غير متوفّرة فمن البديهي أن يندفع الناس نحو الدين ويدخلون في دين الله أفواجاً، أما في الوقت الحاضر فالعكس هو الحاصل حيث نرى الناس يخرجون من دين الله أفواجاً!

إن مثل هذا التفكير لا يحتاج إلى إثبات مجانبته للصواب، ونحن لا ننكر دور الشهوة في استغفال الإنسان عن الله وبث روح اللامبالاة في نفسه تجاه الواجب الذي عينه الله سبحانه. ولكن الاعتقاد بأن الدين يقف في مواجهة الشهوات والملذات أمر غير صحيح.

إن الدين يعارض بعض الميول والرغبات وينسجم مع بعض الميول الأُخرى فهو يقيد هنا ويسمح هناك.

لقد تحدثت في مناسبات سابقة واقتربت من هذا الموضوع، وقلت بأن الدين ليس ملجأ المحرومين الذين رفضتهم الحياة، فلجأوا إلى الدين كمسكن لآلامهم، وذكرت بأن السبب يعود إلى عوامل أُخرى؛ وقبل الخوض في هذا البحث اودّ أن أمهّد له بمقدمة، وهي أن القرآن كثيراً ما يردد مسألة الحجب التي تغلف القلوب والأرواح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾[1]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[2]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[3].

إن القلب، وبسبب بعض الجرائم التي يرتكبها المرء، يفقد رقّته وخشوعه تجاه الحق، وعندها لا تنفع معه المواعظ والنصائح، فإذا استمر الإنسان في ارتكاب الآثام والذنوب والمعاصي فإن حالة القسوة تسود القلب، وقد يحول التعصب دون قبول

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٥.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٥.
(٣) سورة الكهف: الآية ٥٧.

الإنسان الحقيقة والتسليم لها، وبذا يحول حجاب العصبية دون نفوذ الحقيقة إلى داخل القلب.

وهكذا تتراكم مثل هذه الحالات على القلب فتزداد الحجب ويعيش الإنسان في ظلمة حالكة محروماً من نور الحقيقة.

لقد أثارت قريش بعض الإشكالات في وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إحداها: كيف يكون نبيّاً وهو يأكل الطعام كسائر الناس؟ أو يمشي في الأسواق؟ بل كيف يكون نبيّاً وهو بشر مثلنا. لقد كانوا يثيرون هذه المسائل وهم يعتبرون أنفسهم أبناء إبراهيم وأتباع إبراهيم.. إبراهيم النبيّ الذي بشّر بالحقيقة، لقد تحوّل إبراهيم في أوهامهم إلى مخلوق أسمى من البشر يعيش في عالم السماء وخلف الغيوم. وكانوا يتوقّعون أن يكون محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما يشبه إبراهيم في أوهامهم، غافلين عن حقيقة إبراهيم عليه السلام الذي هو أسمى بكثير ممّا نسجته خيالاتهم.

لقد كانت تصوّراتهم الباطلة حجباً منعتهم من رؤية الحقيقة. إن الإنسان الجاهل محروم من إدراك الحقيقة، حيث يبقى بعيداً عنها يعيش في عالم من الوهم والخيال.

بعبارة أُخرى إن بعض الناس يحب الرؤية ومشاهدة الأُمور عن قرب، والبعض الآخر على العكس يحب أن يرى من بعيد، فالفريق الأول يتفحّص في عمله ويبحث عن القرائن والأدلّة، فيما ينسج الفريق الآخر أوهامه وخيالاته ويمنحها جزافاً لكي تبدو الصورة في أذهانهم عظيمة مبهمة تستعصي على الإدراك.

فقد نجد أن البعض من الناس يحبّون القرآن ولكنهم لا يودّون التأمّل في معجزاته والتدبّر في آياته يعتبرون عظمته في بقائه خلف الغيوم قائلين: إن القرآن غير قابل للفهم

وإنه لا يحق لأحد التأمل في القرآن ما عدا الأئمة الأطهار عليهم السلام إن مثل هذه الأفكار هي في الواقع «حركة في عمق الظلام» أو طبيعة «خفاشية» إذا صح التعبير.

قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[1].

إن نور العلم والبصيرة والعقل سراج يضيء الطريق أمام السائرين في دروب الحقيقة، في حين أن الجهل ليس إلا ظلمة حالكة تمنع الإنسان من رؤية الحقيقة، فتبدو الأشباح في نظره هي الحقائق.

إن الأئمة الأطهار عليهم السلام هم أنفسهم يدعون إلى التأمل والتدبّر في آيات القرآن قائلين: اعرضوا أحاديثنا على القرآن فما وافق القرآن فخذوه وما تعارض مع القرآن فارفضوه. القرآن هو المقياس وهو أساس المقارنة في صحّة وبطلان الأشياء؛ وهو المنظار الذي نفهم من خلاله الحقيقة. ولقد كان القرآن وما يزال جنّة تحمي المتدبر فيه من الإنحراف. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾[2]. فكيف يحق لمن عاش في صدر الإسلام حق التدبر ولا يحق لنا إلا التلاوة؟!

وإذا وضعنا بيننا وبين نبيّنا جداراً كجدار الصين فإننا سوف نعجز عن تمثل سيرته وأن نكون من أتباعه والسائرين في دربه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٥.

لقد كانت بشرية الرسول هي التي وهبته مقام النبوّة وهي التي جعلته يسمو على الملائكة.

يتساءل القرآن: إذا كان من المفروض أن نرسل الملائكة أنبياء فإن الضرورة تقتضي إرسالهم على هيئة بشر لكي يكونوا مقياساً للناس ونموذجاً لهم. أما أن يجعل المرء نفسه مقياساً للآخرين فهذا هو الخطأ، فهناك من بين البشر أُناس قطعوا شوطاً بعيداً في عالم الفكر والسمو الروحي، وعلى المرء ألا يكون كتلك الببغاء التي وردت قصّتها في حكايات مولوي[1] الشعرية:

حكوا أن عطّاراً كان لديه ببغاء يستأنس بصوتها وحديثها، وكانت الببغاء تنوب عن العطار في عمله إذا غاب. وذات يوم، وبعد أن ذهب العطّار، ظهر جرذ في الدكّان؛ وفي الحال قفزت القطة للإمساك به فذعرت الببغاء وراحت تقفز هنا وهناك فأسقطت جرار الزيت؛ فلما جاء العطّار وشاهد ما حلّ بالزيت ضرب رأس الببغاء ونتف ريشها فاستاءت الببغاء وأعرضت عن الحديث والكلام غمّا وحزناً، ولم تنفع أساليب العطار في حمل الببغاء على الكلام، فندم على فعله وراح يمعن الفكر في طريقة تجعل الببغاء تعود إلى سابق عهدها من الحديث. وذات يوم مر أحد الدراويش فلما وقعت عين الببغاء عليه، وشاهدت رأسه الخالي من الشعر انطلقت تقول: ماذا حل بك أيها الدرويش لعلك أوقعت جرار الزيت مثلي.

لقد ظنّت الببغاء أن الدرويش لابد وأن أراق الزيت، فكان جزاؤه ذلاًّ. وعندما سمع العطّار ذلك ضحك من قياسها ونظرها إلى الأُمور.

---

(١) شاعر إيراني.

فرق كبير بين أن نقيس الأُمور بهذا المقياس السطحي، وبين أن نتخذ من الأنبياء قدوة ونجعلهم أُسوة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[١].

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه.. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسداد».

إذن فإن انحسار التأثير الديني في النفوس هو أن الناس يجعلون بينهم وبين القرآن والرسول حجباً وجدراناً من الجهل والوهم تمنع من نفوذ الحقيقة إلى أرواحهم. وسنكمل البحث في الليلة القادمة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

عوامل الإنحسار

في تأثير التعاليم الدينية (٢)

كان موضوعنا في ليلة أمس عن العوامل التي تقف وراء انحسار التأثير الديني، والتي عبّر عنها القرآن بالحجب التي تحول دون نفوذ الدين إلى أعماق الروح، وقد ذكرنا بأن الروح تتعرض إلى حالات معيّنة تمنعها من قبول الحقائق والتسليم لها، ومع مرور الزمن وتجذر الجهل وسيطرة الوهم تعم هذه الظاهرة لتشمل المجتمع برمّته.

ومن أعراض هذه الحالة هو ابتعاد الناس عن تأمّل الحقائق عن كثب، ورغبتهم في رؤية الأشياء من بعد حيث ينسج خيالهم صورة مغايرة عن الحقيقة ويعود السبب في ذلك إلى نفوذ الهوى وتمكنه من النفس ورغبة الإنسان في رؤية الأشياء وفق ما تشتهيه النفس ولذا فإنه يجد الحقيقة مرّة إذا تعارضت مع أهوائه.

قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفَنُ

وقال آخر:

أماني أن تحصل تكن غاية المنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

قد تكون الحقيقة مرّة ولكن الخيال حلو دائماً. إن الإنسان الذي ينقاد إلى هواه لابد وأن ينفر من الحقيقة ويعتبر منظرها كريهاً. غير أن العقل لا يمكنه السير وفق ما يريده الهوى فله منطقه الخاص به تماماً مثل المسألة الرياضية، إذ لا يمكن حلّها وفق أهوائنا، فالمعادلة الرياضية تحل وفق منطق دقيق في الحساب.

لعل قائل يقول: إذا كان العقل والعلم والدين يوصل الإنسان إلى السعادة فعلى أساس هذه القاعدة: (خذ الغايات واترك المباديء) وإن السعادة هي الهدف النهائي الذي قد توفره الأوهام والخيالات، فما جدوى مهاجمة الجهل والخيال إذا أوصل ذلك الإنسان إلى السعادة.

لنفترض أن أحدهم أراد السفر إلى مكان ما ولم يسلك الطريق العادي فسلك طريقاً آخر أوصله إلى ذلك المكان، فلماذا نعترض ونأخذ عليه عدم سلوكه الطريق العادي، بل لعل الطريق الذي سلكه هو الطريق الذي ينبغي سلوكه.

ولذا فمن الخطأ تماماً الإعتراض ـ كما يعتقد بذلك البعض ـ مواجهة الجهل على أساس عدم مطابقته للواقع لأنه سوف يحطم الاستقرار النفسي لدى الناس، فمادام هؤلاء يتسلون بنوع من الأوهام والخيالات فما ضرورة استهداف ذلك والقضاء على استقرارهم النفسي، وما هو جدوى إيقاظهم من نومهم وحرمانهم من الاستمتاع بالحياة الجميلة!

وفي جواب هذه التساؤلات نقول: إن مقارنة الجهل مع العقل ووضعهما على حد سواء أمر مجانب للمنطق، فالسعادة التي تقوم على الوهم والخيال والبلادة لا يمكن قياسها بالسعادة التي تنهض على أساس من العقل والمنطق والإحساس المرهف، وإن الإنسان القويم لابد وأن يفضل الحياة التي تقوم على الحس المرهف والمشاعر على حياة

تنطلق من البلادة حتى لو كلّفه ذلك الآلام والعذاب، فقد يجد الإنسان راحته النفسية حتى في الألم ويرفض حياة الدعة إذا اقترنت مع انطفاء العاطفة وغياب الإحسان، إن الإنسان لا يبحث عن الطمأنينة إذا كانت ناجمة عن الجهل.

وهل يفضل الإنسان حياة بعض الأفراد الخالية من كل إحساس وكرامة إذا كان ذلك يوفر له الاستقرار، على حياة تنبض مشاعر وهموماً وإحساساً بآلام الآخرين.

الإنسان الكامل من يشعر بعذاب الآخرين ويعتبر نفسه شريكاً في معاناتهم ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[١].

أليس هذا الخطاب موجّهاً إلى نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان قلبه يتقطع حسرات حتى على مصير أعدائه!:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

بلغت الأنباء علياً عليه السلام بأن غارة شنت على الأنبار من قبل أصحاب معاوية قُتل على أثرها الكثير من الأبرياء، فتأثّر الإمام بشدّة وقال في خطبة له إثر ذلك: «فلو إن امرءً مُسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان عندي جديراً»[٣].

إن الألم يصنع الإنسان ويصقل شخصيته ويجعله مرهف الحس والضمير. صحيح أن الأحمق لا يدرك واقعه المخزي، ولكن هذا لا يطمس حقيقته التافهة. إن الإنسان في النوم أكثر راحة منه في اليقظة، فهل هناك من يفضل الحياة يقضيها نوماً؟!

لقد كان نبينا يتأوّه ويقول: «ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت» ومع ذلك لقد كان يدعو لأولئك الذين عذّبوه قائلاً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وإذن فإن الرأي الذي

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٨.
(٣) نهج البلاغة/خطبة ٢٧.

يذهب إلى عدم إيقاظ الناس من غفلتهم وتركهم في جهالتهم لكي ينعموا بالراحة رأي خاطيء.

لقد تصدى الرسول إلى مثل هذه الغفلة عندما توفي ولده إبراهيم، فقد صادف ذلك كسوف الشمس فقال الناس: لقد كسفت الشمس من أجل رسول الله، فانبرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنسف مثل هذه الاعتقادات قائلاً: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإن كسوف الشمس وخسوف القمر لا علاقة له بموت الناس».

ومما يدعو إلى الأسف أن نجد في بعض الأشعار مثل هذا النفس حيث يعتبر البعض أن العقل والعاطفة هما سبب العذاب والألم، ويتمنى أنه كان عديم السمع والبصر.

لا يمكننا أن تعتبر العقل عدواً، بل هو أصدق أصدقاء الإنسان. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «صديق كل امرئٍ عقله وعدوه جهله» وقال أمير المؤمنين عليه السلام «ليست الرؤية كالمعاينة مع الابصار فقد تكذب العيون أهلها ولا يغش العقل من استنصحه» ويقول في مناسبة أُخرى عن القرآن: «واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يُضل والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى ونقصان في عمى» إلى أن يقول: «فكونوا من حرسته وأتباعه واستدلوه على ربكم واستنصحوه على أنفسكم».

خطر التحريف في النصوص الدينية

ينتقد القرآن الكريم أولئك الذين يحرّفون الكلم عن موضعه، ويشمل التحريف قسمين: الأول التلاعب في الحديث أو التأليف حذفاً أو إضافةً، الأمر الذي يؤدي إلى اختلال في المعنى، حيث لم تسلم الكتب القديمة من أيادي بعض الخونة دسّاً وتحريفاً، ولقد طال ذلك حتى دواوين الشعر مما يؤدي إلى إثارة المتاعب أمام الباحثين ويمكن إطلاق (التحريف اللفظي) على هذا النوع.

أما القسم الآخر من التحريف فهو (التحريف المعنوي) أي بقاء الألفاظ في أماكنها والعبارات في سبكها، ولكن التحريف هنا ينطلق من التأويل وممارسة نوع من التعسف في التفسير.

فالمنطق كصنعة يتضمن ما يسمى بالمغالطة، وهناك ثلاثة عشر نوعاً من المغالطة يتمكن المرء من خلالها خداع الآخرين، فمن يتقن هذه الصنعة لابد وأن يكون في مأمن من آثارها، مثلما يلم الطبيب بمختلف الأمراض فيكون في حيطة منها.

لقد كان عمار بن ياسر من كبار الصحابة الأجلاء. شهد في مكه بأمّ عينيه تعذيب والديه حتى الموت، وقد تعرض رضوان الله عليه للتعذيب حتى كاد أن يموت هو الآخر. وعندما هاجر إلى المدينة اشترك في بناء المسجد المعروف اليوم بمسجد النبيّ، وكان يعمل بهمة ونشاط والعرق يتصبب من جسده. وفي تلك الظروف قال النبي أمام جمع من

أصحابه: «عمار تقتله الفئة الباغية». وحديث الرسول هذا أشار إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[1].

ولقد كان هذا الحديث في الحقيقة رسالة موجهة للمسلمين كي يكونوا على يقظة تامة. وأصبح عمار مقياساً وأساساً ينظر إليه المسلمون في تقييم الأمور، وتمرّ الأعوام وتندلع حرب صفين، وإذا بالإمام علي عليه السلام ومعه كبار الصحابة ومعهم عمار بن ياسر في جبهة، ومعاوية ومعه الغوغاء من أهل الشام في جبهة أُخرى، وإذا بمعاوية يمارس نوعاً من التحريف المعنوي ويخدع أهل الشام بعد استشهاد عمار قائلاً: (إن قاتل عمّار هو علي وأصحابه الذين جاءوا به إلى الحرب) فعلّق أحد الحضور قائلاً: (وإذن فقاتل حمزة هو النبي الذي جاء بحمزة إلى حرب أُحد). وبالرغم من تفاهة هذا الاستدلال فقد خدع به الشاميون.

ينبغي أن يكون المسلمون يقظين تجاه النصوص الدينية وحمايتها من التحريف في اللفظ والمعنى. إن القرآن الكريم لا يمكن تحريفه على صعيد اللفظ أبداً ـ حذفاً أوإضافةً ـ ولكن الخطر هو في التأويل والتفسير. وعلى المسلمين المحافظة عليه إذا أرادوا أن يحافظوا على أنفسهم.

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

أثر الذنب ومعاشرة الأشرار في اسوداد القلب

ورد في الأحاديث: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة به حتى تقلّب عليه فيصير أعلاه أسفله» كما ورد في أحاديث أُخرى أن النفس كالصفحة البيضاء فإذا أذنب الإنسان ذنباً ظهرت نقطة سوداء فإن ندم واستغفر اختفت وإن استمر في ارتكاب الذنوب توسعت تلك النقطة السوداء؛ فإذا لم يتدارك نفسه تغلبت المساحة السوداء، وحينها لا يبقى هناك من أمل في عودته إلى جادة الصواب.

ويشير الحديث إلى الآية الكريمة: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

ليس العمل السيّء وحده الذي يؤثر في اسوداد القلب، بل هناك عوامل أُخرى تؤثر على القلب سلباً وإيجاباً من بينها المحيط والبيئة والمعاشرة، بتأثير المعاشرة واضح جداً سواء على صعيد الخير أم الشر. إن من يعتقد بانتفاء أثر المعاشرة يغالط نفسه، ذلك أن الروح الآدمية شفّافة سريعة التأثير حيث تجري التحولات داخل النفس دون شعور أو وعي لعدم ظهور الآثار مباشرة على الإنسان كما هو الحال في البدن، وللأسف لا

---

(١) سورة المطففين: الآية ١٤.

توجد وسيلة لمعرفة ذلك لكي يمكن مثلاً أن يزن نفسه، وهل أصبحت روحه مثقلة مثلاً أم خفيفة.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «واعلموا أن يسيرالرياء شرك ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان» وهذه العبارة تكشف مدى تأثير المعاشرة على روح الإنسان وعلى شعلة الإيمان في القلب حيث تخبو شيئاً فشيئاً.

وإضافة إلى ذلك توجد عوامل أُخرى تؤثر في اسوداد القلب سنبحثها في المستقبل بإذن الله.

وخلاصة الموضوع إن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى الكمال دون إرادة منه، فتهذيب النفس للوصول بها إلى مدارج الكمال له أرضيته في روح الإنسان. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

فالروح الإنسانية التي تنطوي على هذا الاستعداد في التكامل هي روح حية يمكنها النمو إذا ما توفّرت لها الظروف المناسبة، ولهذا عبّر القرآن عن الكافرين بأنهم موتى لفقدانهم ذلك الاستعداد في إشارة رائعة. قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] القرآن ليس شعراً، ليس خيالاً لكي يمكن تجاوزه. القرآن كتاب حقائق يسلط الأضواء ويكشف ما خفي عن بصيرة الإنسان. الإنسان في نظر القرآن كائن حي متى وجد في أعماقه الاستعداد للرقي والتكامل في طريق الصلاح، فإذا انتفى هذا الجانب انتفت صفة الحياة في داخله كالبذرة التي لا يمكن لها أن تنمو، ولذا فإن الخطاب موجّه لمن في أعماقه بذور الخير والتكامل، وهو دعوة إلى النمو في طريق الكمال.

---

(١) سورة الشمس: الآية ٩-١٠.

(١) سورة يس: الآية ٧٠.

المجاملات الكاذبة

عندما تقع يد الطفل على شيء كأن يكون لعبة أو طعاماً فإنه سرعان ما يظهر رغبة في ذلك، وإذا ما شعر بالحزن لسبب ما فإنه ينخرط في البكاء فوراً. غير أن الكبار ومراعاة للعادات والأعراف، وعلى أساس حفظ ما يسمى بالشأنية، فإنهم ينطوون على عواطفهم وأحاسيسهم بالكبت، فقد يصر المضيّف مثلاً على ضيوفه في تناول الطعام ولكن الضيوف ومع رغبتهم يمتنعون عن ذلك.

لقد ورد في التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ليلة عرسه بعائشة تناول قدراً من الحليب الذي احضرته عائشة ثم قدم الإناء إلى أُم سلمة التي امتنعت مظهرة عدم رغبتها فقال الرسول ما معناه: «أتجمعين الكذب بالجوع»، وتساءلت أم سلمة وهل يسمى ذلك كذباً لو أعرض الإنسان عن تناول شيء من الطعام مجاملة أو حياءً؟ فأجاب الرسول(ص) نعم!

العاطفة والحب والأحاسيس كلها أُمور ضرورية، وإذا أصبحت الحياة عارية من العواطف كانت جافّة وميتة وخالية من كل روح، ومن ضرورات العاطفة أبرازها لكي تقوم بدورها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي بأن يبرز المرء حبّه لأخيه وصديقه لكي تمتن العلاقة بينهما، وإذا كانت المجاملة تنهض على هذا الأساس من إظهار الحب والعاطفة والأحساس فما أحلاهما! غير أن الامم التي لا تتمتع برقي أخلاقي

واجتماعي تعاني من المجاملات الكاذبة، فمثلاً لو أراد شخصان دخول غرفة أو مغادرتها فإنهما ينفقان وقتاً طويلاً في من يدخل منهما أوّلاً في حين أن رغبة كل منهم تقديم نفسه على الآخر. أو ما يقوم به البعض حين يدعو أصدقاءه إلى وليمة من تصنع وتكلّف، وهو في الواقع شكل من أشكال النفاق. والنفاق من مختصات البشر، وإذا وجد لدى الحيوانات فهو على درجات خفيفة، أمام الإنسان في هذا المضمار.

إن ما يقوم به الإنسان المخادع والماكر هو في الواقع استغلال سيء للطاقات البشرية في الرقي والتكامل. إن إظهار الإنسان غير ما يبطن يجد له من المبررات المعقولة في بعض الأحيان، فقد يجد المرء نفسه مضطراً لإخفاء عقيدته في ظروف قاهرة، كما ينبغي للإنسان أن يخفي مشاعره الخاصّة بالفرح أمام المنكوبين والمحزونين، وفي مقابل ذلك يستحب للإنسان أن يكون هشّاً بشّاً حتى وإن كان محزوناً لأمر من الامور، عليه أن لا يعكس ذلك على وجهه، وهذا من حسن المعاشرة. إن ما ذكرنا هو من خصال الإنسان الحميدة التي تنشأ عن إحساس فطري يمكن أن ينقلب إلى صور من النفاق والخديعة حسب إرادة الإنسان.

إننا نلاحظ، ومع الأسف، الكثير من الناس ممن يعتبرون النفاق والمكر والخديعة (شطارة) في حين يعتبرون الصدق والصراحة، ومع الأسف أيضاً، سذاجة وغلظة! كل ذلك انطلاقاً من اعتقادهم الخاطيء بأنّ الحياة إنما تسير بالنفاق والمكر والخديعة، غافلين عن الله وأن الله هو خير الماكرين وأن المكر مع الله هو الخسران المبين.

إن القرآن الكريم يذم المكر ويستنكر النفاق والمداهنة، وإن النجاحات التي يحققها الإنسان إثر ذلك سرعان ما تبور، وإن مصير ذلك هو الخسران، بينما تكون العاقبة للمتقين، أولئك الذين تنهض حياتهم على الصدق والحق والاستقامة، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

المحتويات